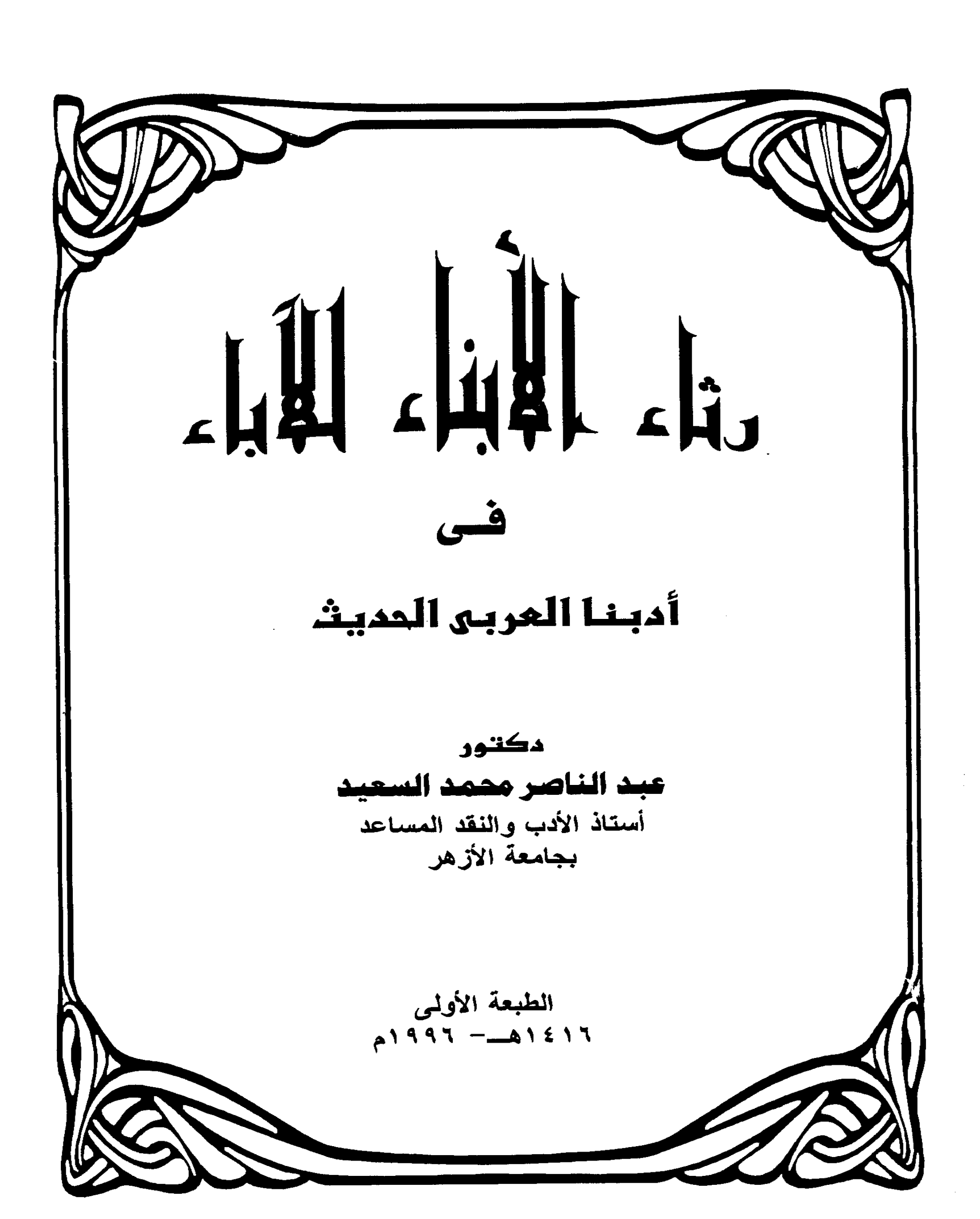


رثاء الأبناء للآباء

فى

أدبنا العربى الحديث

دكتور

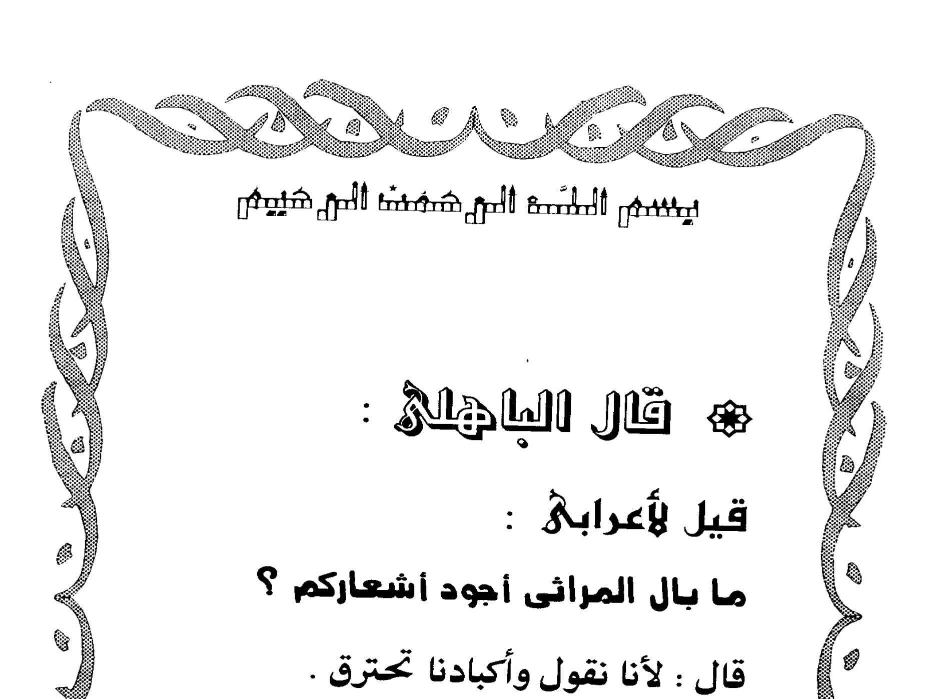
عبد الناصر محمد السعيد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

❁ قال الباهلي :

قيل لأعرابي :

ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟

قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق .

البيان والتبيين جـ٢ ص ١٧٠




المقدمة

❁ تقـــــديم ❁

فـى المكتبـة الأدبيـة كتـاب تحـت عنـوان ((رثـاء الأبنـاء فى الشـعر العربى)) للدكتور / مخيمر صالح موسى ، وهو رسالة دكتوراه تنـاول فيها الباحث رثاء الأبناء فى الشعر العربى إلى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وقد قال الباحث فى خاتمة بحثه ، ولعل هذه الدراسة تفتح آفاقا واسعة أمـام المهتمين بتراثنا الشعرى ، للاهتمام بالموضوعات الشعرية التى لم تسلط عليها الأضـواء بعد ، كدراسة جوانب أخرى من شعر الرثـاء ، ودراسة شعر رثاء الإخوة ، ورثاء الزوجات أو الأباء [١] .

أوجد هذا الترجى فى نفسى قبولاً للكتابة عن رثاء الآباء فى الأدب العربى ، وذلك لأسباب عديدة منها :

أن العاطفة المقابلة لرثاء الأبناء هى عاطفة رثاء الآباء ، بمعنى أن الأب يبكى ابنه بهذه العاطفة الجياشة ، فكيف يبكى الابن أباه ، وبأى عاطفة ؟

عند دراستى للشاعر أحمد شوقى فى أطروحتى ((الدراسات النقدية حول شوقى)) عرفت أنه سكت عند موت أبيه زمنا ، ولم يرثه

---

(١) رثاء الأبناء فى الشعر العربى ط مطبعة المنار ص ٢٣٢ .

وظل هذا السكوت حتى كان موضع ملامة فقال :-

سألـــونى لـم لـم أرث أبـــــى   ورثـــاء الأب ديـــن أى ديـــن
أيهـــا اللـــوام مـــا أظلمكـــــم   أيــن لى العقل الذى يسعد أين [١]

وسكوت الآبناء عند موت الآباء ظاهرة تستحق الدراسة والبحث .

- وفى المكتبة الأدبية كتاب تحت عنوان " الرثاء فى الشعر العربى أو جراحات القلوب " [٢] تناول فيه مؤلفه الرثاء منذ عرف الشعر الجاهلى ، وأهم شعراء الرثاء فى الجاهلية ، وتحدث فيه عن رثاء الآباء والأبناء والإخوان والأصدقاء والملوك والأشراف والسادة والشيوخ ، ثم تناول فيه العصر الإسلامى وما تلاه من عصور حتى عصرنا الحديث ، متحدثا بجانب ذلك عن رثاء الممالك الإسلامية ، ورثاء العشاق ... إلى آخره .

وقد شغله هذا التنوع عن الإحاطة ، وله عذره فهو يتكلم عن الرثاء بوجه عام .

فمثلا عند حديثه عن الرثاء فى شعر شوقى ، تحدث عن رثاء شوقى لمصطفى كامل ، ورثاء شوقى لشهداء سورية ، ورثاء نابليون ، ورثاء الفراعنة .

---

(١) ديوان أحمد شوقى جـ٢ ص ٥٥٨ . دار نهضة مصر .

(٢) تأليف الدكتور : محمود حسن أبو ناجى . منشورات دار مكتبة الحياة سنة ١٤٠١هـ .

ولـم يتحدث عن رثاء شوقى لأبيه .

• ومن ثـم ، فقد رحت – مسـتعينا باللّـه عـز وجـل – أتتبـع رثـاء الآباء فى أدبنا العربى الحديث ، عاقدا العزم على رصـد هذه العاطفـة عند الشعراء والناثرين .

وقد قسمت بحثى إلى فصلين يسبقهما تمهيد ويتلوهما خاتمة .

أشـير فـى التمهيـد إلـى : **رثـاء الأبنـاء للآبـاء فـى أدبنـا العربـى وبداياته.**

ثـم يكون الفصل الأول : **وهو دراسة موضوعية لرثاء الآباء .**

والفصل الثانى : **وهو دراسة فنية أحـاول فيهـا أن استجلى مـدى صدق هذه العاطفة عند الشعراء ، ونواحى التأثر والمعارضة .**

والله أسأل العون والتوفيق والسداد

إنه نعم المعين

دكتور

عبد الناصر محمد السعيد


التمهيد

❁ تمهيــــــــد ❁

رثاء الأبناء للآباء : بدايات وجذور

تطالعنا فى البداية مقطوعات متناثرة فى شعرنا العربى ،مثل قول فاطمة بنت رسول اللّـه صلى اللّـه عليه وسلم فى أبيها :

اغبــر افـــاق السمــاء وكوَرت	**شمــس النهــار وأظلــم العصران**
فالأرض مــن بعــد النبــى كئيبة	**أسفاعــليه كثيــرة الرجفــــان**
فليبــكه شــرق البــلاد وغــربها	**وليبــكه مــضر وكـل يمــانى**
وليبــكه الطــود المــعظم جوّه	**والبيــت ذو الأستــار والأركان**
ياخـــاتم الرســل المبارك صفوه	**صــلى عليـك منــزّل القرآن [١]**

ومن مراثى الآباء أيضا ما ذكره المبرد فى كتابه ((الكامل)) حين قال : فمن مليح ما قيل ، قول رجل يرثى أباه . قال أبو الحسن : يقال إنه ابن لأبى العتاهية :-

قلــب ياقلـــب ما أوجعـــك	**مــا تعـــدّى فضعضـــــك**
ياأبــى ضمـــك الثــــرى	**وطــوى المــوت أجمعـــك**
ليتنـــى يـــوم مـــت صــر	**ت إلـــى التــرب معـــك**
رحـــم اللّـــه مصرعـــك	**بـــرّد اللّــــه مضجعـــك [٢]**

* وكذلك وردت أبيات ((قتيلة بنت النضر بن الحارث فىأبيها :

---

(١) العمدة :جـ٢ ص ١٥٣ .

(٢) الكامل ، ص ٣١٧ .

ياراكبـــا إن الأثيـــل مظنـــة — مـن صبـح خامسـة وأنـت موفق
بلـــغ بهـا ميـــتا فـإن تحيـــة — مـا إن تـزال بهـا الركائـب تخفق
منـيّ إليـــــه وعبـــرة مسفوحة — جـاءت لمـائجها وأخـرى تخنـــق
فليسمعـــن النضـــر إن ناديتـــه — إن كـان يسمـع ميت أو ينطق [١]

* وقد ورد في ديوان الحماسة أيضا : وقالت امرأة ترثي أباها :

إذا مـا دعـا الداعي عليا وجدتني — أراع كمـــا راع العجـــول مهيب
وكـم مـن سمـيّ ليـس مثـل سميه — وإن كـان يـدعى باسمه فيجيب [٢]

وهكذا نرى نتفا صغيرة وقد تنـاثرث هنـا وهنـاك ، شـعرا ونـثرا ، كالذي قالته عائشة بنت أبي بكر ، رضي اللّـه عنها - على قبر والدهـا ، وذلك عندما قامت على قبره فقالت :

نضَر اللّـه وجهك ، وشكر لك صالح سعيك . فلقـد كنـت للدنيـامذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزا بإقبالك عليها . وإن كـان لأجلّ الأرزاء بعد رزء رسول اللّـه صلى اللّـه عليه وسلم رزؤك ، وأكـبر المصـائب فقدك . وإن كتاب اللّـه ليعد عنـك بجميـل العـذاب حسـن العوض عنـه ، فأنتجـز مـن اللّــه موعـــده فيـــك بـالصبر عنـك واسـتخلصه بالاستغفار لك [٣] .

---

(١) شرح ديوان الحماسة ص ٢٧٤ .
(٢) شرح ديوان الحماسة ص ٣٨٢ .
(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٦ .

ونقف مع أول محاولات الشعر ، مع امرىء القيس بن حجر بن الحارث وقد كان على خلاف مع أبيه ، فأبوه مشغول بالسيادة والرئاسة والملك ، ويحاول أن يعدّ ولده لذلك . والولد مشغول بالشعر واللهو والمجون .

وكم أراد له والده السير على منهاجه ، والضرب على منواله . وكم كان يفرّ امرؤ القيس منه ، ومن محاولاته ، ومن هذه الحياة التى يريد له الأب أن يترسمها ، ولم لا ؟ وقد استراح إلى حياة خاصة ، صنعها بيديه ، وصاغها بشعره ، أعجبته هذه الحياة ، وشغلته عما أعدّ له . وجاءت تلك اللحظة الحاسمة ، تلك التى يعد كل أب ولده لها.

ليكـــون مكانه مدافعا عنه ، آخذا بثأره ، ممسكا بزمام الملك من بعده .

لقد قتل الملك ، قتل الأب ، قتلته بنو أسد ، والنتيجة معروفة وموقف امرىء القيس معروف ، موقفه من ثأر أبيه ، موقفه من القبائل التى قتلت هذا الأب . تنقل بين القبائل طلبا للعون ، إلى أن كانت نهايته .

ولكننا نريد أن نقترب من امرىء القيس ، من الشاعر امرىء القيس ، من قيثارة امرىء القيس التى عزفت على رمال الصحراء ، تلك الألحان الغزلية المعربدة اللاهية .

نريد أن نقترب من الشاعر الابن . ماذا فعل عند موت أبيه ؟ عند فجيعته فيه ؟ تسمعه يقول :

ياهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا [١]
تاللّه لا يذهب شيخى باطلا ياخير شيخ حسبا ونائلا
وخيرهم قد علموا فواضلا يحملننا والأسل النواهلا [٢]

وقد وردت الأبيات بصورة أخرى فى الديوان :

واللّه لا يذهب شيخى باطلا حتى أسر مالكا وكاهلا
خير معَدّ حسبا ونائلا ياهف هند إذ خطئن كاهلا [٣]

هذه هى الكلمات التى رثى بها امرؤ القيس أباه حين وصله الخبر ، فهم قد قتلوا السيد الكريم ، وهو لن يتركهم ، ولن يُضيّع أباه .

ولامرىء القيس أيضاً قصيدة يبكى فيها أباه وأجداده ، ويتحدث فيها عن الموت .

* يقول فى هذه القصيدة :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

إلى أن يخلص إلى رثاء أبيه :

---

(١) الحلاحل : السيد الكريم .
(٢) الأغانى جـ٩ ص ٨٩ .
(٣) ديوان امرىء القيس ص ١٣٤ .

أبعـــد الحارث الملـــك ابن عمرو ... وبعـــد الخيـــر حجر ذى القباب

أرجّـــى مـــن صروف الدهر لينا ... ولـــم تغفـــل عن الصم الهضاب

وأعلـــم أننـــى عمـــا قليـــل ... سأنشـــب فـــى شبـــا ظفـر وناب

كمـــا لاقـــى أبى حجر وجدى ... ولا أنسى قتيـــلا بالكُـــلاب [١]

* وقد نعثر على نتف بسيطة فى ديوان الهذليين . يقول المتنخل يرثى أباه عويمرا :

لعمـــرك مـــا إن أبـــو مالـــكٍ ... بـــوانٍ ولا بضعيـــف قِـــواه

ولكنـــه هيـــــــن ليـــن ... كعاليـــة الرمـــح عَـــدْد نساه

إذا سدتـــه ســـدت مطـــواعة ... ومهمـــا وكـــلت إليـــه كفـــاه

ألا مـــن ينـــادى أبا مـــالـــك ... أفـــى أمـــرنا أمـــره أم ســـواه

أبـــو مـــالك قـــاصر فقـــره ... علـــى نفســـه ومشيـــع غناه [٢]

وهذه النتف والمقطوعات على قلّتها وقصرها وندرتها تعد كثيرة أمام دواوين فحول الشعراء التى تخلو من هذا الجانب ، تخلو من رثاء الآباء . فديوان البحترى يخلو من الحديث عن أبيه والحزن عليه حين مات . وهو يخلو أيضاً من ذكر أمه وبكائه عليها حين ماتت [٣] أو

---

(١) الكلاب : اسم واد كانت فيه واقعة قتل فيها أبوه حجر وأخوه . والأبيات منقولة عن الديوان ص ١٠٠ .

(٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) فصول فى الشعر ونقده . د/ شوقى ضيف ، ص ٧٣ .

ترثيهم مع خلوها من اللوعة والفقد .

وكما يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه ((الرثاء)) : ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن ندب الأبناء و الإخوة يستوفى أكثر الصفحات المحزونة من ندب الأهل والأقارب ، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحرقة التى تتضور لها الأحشاء والقلوب (١) .

ويأتى بعد ذلك الشاعر عبد اللّه بن المعتز ، وقد أورد قصيدة كاملة فى ديوانه يرثى بها أباه . وعبدالله بن المعتز شاعر وأمير ، لم يفرمن الملك كما فعل امرؤ القيس ، بل خاض غمار السياسة واكتوى بنارها ، وحمل راية الأجداد فى عزة وكرامة . فقد سبقه من الأجداد من مهّد له طريق الفخار والعزة ، فهو يفاخر بجده أبى الفضل العباسى ، ويرى أنه كان أحق الناس بالخلافة لولا أنه كفّ بصره فى ذلك الوقت:

أبو الفضل أولى الناس بالفضل كلهم ... تعالوا نحاكمكم إلى البيت والحجر
ولولا بلوغ السن منه وكفها ... سراجيه لما أن أتى آخر العمر (٢)

فالشاعر هنا قد وظف قصيدة الرثاء للدفاع عن هذا المجد منذ البداية ، وأعدّ نفسه لذلك .

---

(١) الرثاء : د شوقى ضيف ص ٢٤ .

(٢) ديوان أشعار الأمير أبى العباس جـ١ ص ٦٤ .

وقد مات والد الشاعر ، مات الخليفة ، أو على الأصح قتل الخليفة الأب أشنع قتلة، وجروه برجله ، وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف ولم يعذّب خليفة بمثل ما عذب به على صغر سنة ومات عن أربع وعشرين سنة [١] سنة ٢٥٥هـ وكان شاعرنا في سن الثامنة ، إذا أنه ولد على الأرجح لسبع بقين من شعبان سنة ٢٤٧هـ [٢] .

وقد نفيت جدته ومعها هذا الغلام الصغير ، التى لم تؤهله سنه للشعور بالكارثة – نفيت إلى مكة – ثم عادت مع صغيرها فى عهد عمه المعتمد .

وإلقاء الضوء على موت الوالد ، والظروف التى أدت إلى موته ، وسن الشاعر وقتها – وقول الشاعر القصيدة بعد ذلك مباشرة ، أو بعدها بسنين ، والجو السياسى الذى أنشد فيه قصيدته كل ذلك له دور مهم فى تفسير النص والعاطفة فى القصيدة .

ونضيف هنا إلى تلك الظروف التى قيل فيها النص ، هذا الجو السياسى الذى كان يعيشه الشاعر ، فهو ليس فى حلّ من أن يعبر عن كامل مشاعره ، أو يصبّ نقمته على من مثلوا بأبيه . فليبحث الشاعر عن عنصر آخر ، وهو عنصر التأسى والتصبر .

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١٥١.
(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٥١.

وهذا العنصر هو الذى صبغ القصيدة كلها بصبغته . والشاعر لم يكن واعيا فى حياة أبيه ، ولم يغمره الأب بحنانه حتى يعبّر عن فقده لهذا الحنان ، وإذن فليس أمامه إلاّ ما ذكرنا : التأسى والتصبر ، وهو ما بدأ به الشاعر قصيدته :

رب حتف بين أثناء الأمل	وحياة المرء ظل ينتقل
لو نجا شيئ نجت ضارية	تهجر السهل وتحتل القلل
كل يوم تخضب المنسرمن	علق تنهل منه وتعل
وإذا ما برق الفجر لها	نفضت عن ريشها لؤلؤطل
وحرىّ بنجاء لو نجا	وعل بات على هضب مطل
يشرب الماء على متن صفا	مسحته كف ريح فانصقل
مثل مرآة جلاها صيقل	لو علاها ولد الذر لزل
يرتعى مستأنف البقل إذا	خضَر الأرض ربيع مبتقل
وشتيم خادر فى غيله	يرقب السفر إذا اصفر الأمل
صبغ الزبرة حتى خلته	قد تردّى أرجوانا واشتمل
وابن كثبان خفُىُ شخصه	مثل قيد الشبر إن عض قتل
قاحل كالقد لو قطّعه	غرب سيف لم تجد فيه بلل
مرصد إن نفث الربقة فى ال	صخر شظاها وفى الغاب اشتعل

وبعد هذه النماذج التى ساقها والتى لم تنج من الموت ،ولم تستعص عليه ، رغم تحصنها من الهلاك ، وتمنعها عليه ، راح بعد ذلك يواصل تأسيه وتصبره ، متسائلا فى استفهام تقريرى عن الذى

يسلم من صرف الردى :

أيـن مـن يسلــم من صرف الردى؟ حكـــــم المـــوت عليـــنا فعدل
وكأنــا لانــرى مــا قــد نـــــرى وخـطـــوب الدهــر فيــنا تتصـل

ويعرّج بالحديث على والده ، فهم قتلوه ، ومات وهو بطـل ، وهذا الدم هو الحناء لهذا البطل ، وهو وإن مات فقد خلف وراءه بطلا عنيدا قاهراً لهؤلاء الأعداء:

إن يكـــن خضّبـــه أعـــــداؤه بـــدم فالـــدّم حنـــاء البــــطل
ولقـــد خلـــف منـــى بعـــدهم لهـم صِـلَ أعـاد أى صِـــــــلَ
فـــرويـــدا بظـــلام صبـــحه فهـــى الأيـــام والـــدهــر دول
كـــم أخ لـــى لـــم يلده والدى وابـــن قـربــى كـــان هما ووجل
ولقـــد أعجـــب مـــن ذى بخل منـــع النــــاس نـــداه وسأل

إلى أن يختم الأبيات بهذا البيت الذى يَكِل فيه كل شيىء إلى ربــه . ولـم لا ؟ وقد فرغ اللّـه من الرزق ومن العمـر ، ومـا نحن إلاّ أسباب لتنفيذ هذا وذاك :

فـــــرغ اللّـــه مـــن الرزق ومن مـــدّة العـمر ومن وقت الأجل [1]

وهكذا ترى القصيدة كاملة تعالج من بدايتها إلى نهايتها فكرة واحدة هى رثاء هذا الأب . والشاعر مشغول من أول بيت إلى أخر بيت بالحديث عن الموت ، حديث المسلم به ، المؤكد على أنه لا

---

(١) الديوان جـ٢ ص ٣٦٠ .

يسلم منه أحد .

فكل حتف بمقدار ولا نملك إلاّ الصبر والتوكل ، وترك الأمور للّه عز وجل ، ربما تحدّث فى ثلاثة أبيات عن أبيه ، وعن نفسه وعن الأعداء :

إن يكن خضّبه أعداؤه بدم فالدم حناء البطل

ولقد خلّف منى بعدهم لهم صل أعاد أى صل

وهى أبيات تتصل بالفكرة ، تلك الفكرة التى قدمنا لها فى بداية القصيدة . التأسى والتصبر وطلب العزاء ، فأى كلمة فى هذا الجو السياسى لها حسابها من أعداء يتربصون به .

ولذلك جاءت القصيدة كلها عزاء من عبد اللّه المعتز لنفسه ، يقول لنفسه إن اللّه أراد لأبيه أن يموت فى هذا الوقت . ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ، ولا مفر من الموت مهما كانت المنعة والقوة :

فرغ اللّه من الرزق ومن مدّة العمر ومن وقت الأجل

إننا عندما نقرأ قصيدة ابن المعتز ، نلمح ظلال قصيدة أبى ذويب فى رثاء أولاده ((عينية أبى ذويب الهذلى)) نلمح صوراً كثيرة تتمنع على الموت ، ومع ذلك يحاصرها الموت من كل مكان .

لقد كان أبو ذؤيب يعزى نفسه ، وكذلك فعل عبد اللّه بن المعتز .

- ويأتى رثاء الشريف الرضى لأبيه ، وهو يخالف تماما ما كان

مع عبد اللّـه بن المعتز .

فالشريف الرضى عايش أباه ، وعاش فى ظله ، وولـد وعـاش فـى خضمّ السياسة والأحداث واضطراب الدولة العباسية وتفككها . وهـاهو يتقلد وظائف أبيه ويعيش فـى كنفـه وفـى عَزه ، ويشـهد أبـاه فـى أوج عزته ، ويراه أيضا مكبّلا فى سجنه ، فقد سجنه عضـد الدولـة سـبع سنوات من سـنة ٣٦٩هـ ، ثـم أخرجـه شـرف الدولـة بعد ذلـك وردّ إليه أموالــه .

كل هذه الأحداث وعيها الشاعر وتأثر بهـا ، وسـجّلها فـى شـعره ، وكـان يـرى نفسـه مسـاويا للخلفـاء ، لا يقل عنهم شـأنا . وهـو الـذى يخاطب الخليفة القادر فيقول :

عطفـا أميـر المـؤمنين فإننـا فـى دوحـة العليـاء لانتفرق
إلاّ الخـلافة ميّزتـك فإننـى أنـا عاطـل منهـا وأنت مطوق

شـاعر بهـذه العَزة ، وتلك المنزلـة ، وقد عـايش أبـاه تلك الفـترة الطويلة [1] ،مادحا إياه فى قصائد عديدة ، لابدأن يكون أثر وفـاة والـده

---

(١) الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الظاهر ولد فى بغداد سنة ٣٥٩ هـ .
تولى أبوه نقابة الطالبين وإمارة الحج ، وديوان المظالم مرات . ولـد لـه أولاً : الشـريف المرتضى سنة ٣٥٥هـ ثم الشريف الراضى ولما شباً كانا ينوبان عن أبيهمـا فـى أمـور نقابة الطالبين . تولى الشريف الرضى وظائف أبيه جميعها سنة ٣٨٤هـ ، وذلك بعد =

واضحا فى شعره فقد تهيأت كل الأسباب للبوح بعاطفته . فهو لا يخشى الأعداء ، وهو قد عاش مع والده فترة طويلة ، فهو يملك ناصية الشعر .

وفعلا حدث ذلك . وحق لمن كتب عنه أن يقول ((أما رثاؤه لأهله فقد عمر بالمحبة والوفاء والإجلال ، والتفجع . وقد تركت وفاة والده أثراً بعيدا فى نفسه ، إذا كان يقدره كل التقدير لذلك رثاه بقصيدة عصماء ، طفق يعدّد فيها مناقبه ومزاياه)) [1] .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالدعاء له بالسقيا فقال

وسمتك حالية الربيع المرهم　　وسقتك ساقية الغمام المرزم
قد كنت أعذل قبل موتك من بكى　　فاليوم لى عجب من المتبسم
وأزود دمعى أن يبل محاجرى　　فاليوم أُعلمه بما لم يعلم
لاقلت بعدك للمدامع كفكفى　　من فكرة ولو ان دمعى من دمى

عاطفة جياشة ، فى كل بيت من الأبيات ، بل ان البيت التالى يصور حالته فى موقفين مختلفين ، ويجسّد تلك الحالتين أعظم تجسيد . فى الحالة الأولى كان يلوم من بكى على ميت ، وهل هناك ما يبكى عليه ومن يبكى عليه؟ لقد كان ذلك فى حياة الوالد . فلما مات والده

=أن أعفى ابوه منها سنة ٣٨٨هـ (الشريف الرضى حياته وشعره) . حسن جعفر نور الدين ص ١٢ .

(١) الشريف الرضى حياته وشعره ص ٦٤ .

صار يعجب ممن يراه مبتسما مجرد ابتسام .

والبيت الثالث : كان يمنع دمعه من أن يبلّ محاجره ، أو أن يرى للناس واليوم ، وبعد وفاة الوالد سُيرى وسيعلم الدمع والعين ، كيف يكون البكاء .

فقد تبدل احال وتغير الزمان بموت الأب إنه لن يكفكف دمعه ، ولو كان هذا الدمع من دمه .

ثم يتابع الشاعر الحديث عن والده . لقد كان سيفا مهندا أغمد فى الثرى ، وجبالا شامخة توارت فى التراب . إن شامخات عالية تبدو هزيلة أمام علاه .

وهو كريم شجاع يرد ألوية القنا بعد المعارك مضمخة بالدماء من كثرة ما تشرب من نجيع الأعداء . وهكذا عمّت فضائله البلاد ، وتحدث بها كل الناس ، ومجده ظاهر للعيان ، وشامة فى خدّ الزمان .

اليوم أغمدت المهند فى الثرى ... ودفنت هضب متالع ويلملم

وغدت عرانين العلى وأكنها ... من بين أجدع بعده أو أجزم

متبلج كرما إذا سئل الجدا ... مطر الندى أمما ولم يتغيم

الواهب النعم الجراجر عادة ... من ذى يدين إذا سخا لم يندم

تسعة وثمانون بيتا ، لم تخمد عاطفة الشاعر فى بيت واحد منها ، حتى نسمعه يقول فى البيت الثمانين ، بعد أن أفرغ مدحه فى أبيه ،

وفخره به وحديثه عنه ، عارضا لعمق الفجيعة فيه ، وحالـه بعد موتـه مع أنه فى سن الأربعين :

أعريـــت ظهـرى للعـدا ولو اتقى ... بزهـاء مـزدحم العديـد عر مرم

وكشفـت للأيـام عـورة مقـتلي ... حتـى رددن علـيّ بعدك أسهمى

قـد كنـت ما بينى وبين سهامها ... فاليـوم لا يخطئـن شاكلـه الرمى

هـل تسمعن من الزمان ظلامتى ... فيمـا جنـى وأتى الزمان تظلمى

إلى آخر القصيدة ، التى كشف فيها عما أصابه بعد فقد أبيه .

* * * *

* * *


الفصل الأول
الدراسة الموضوعية

الفصل الأول

رثاء الأبناء للآباء : دراسة موضوعية

حفلت القصيدة العربية فيأدبنا الحديث بفيض من العاطفة الجياشة لدى الشعراء فى رثاء الآباء .

وقد دارت الأفكار حول معان كثيرة اشترك فيها الشعراء والناثرون :

وأول هذه الأفكار :

❁ مدح الآباء :

تكاد تكون هذه الفكرة عنصرا مشتركا بين الشعراء عندما يبكون أبائهم . نراهم يتحدثون عن مآثرهم وأفضالهم وما بذلوه فى حياتهم ، وإن اختلفت الصورة كما وكيفا .

فقد يلّح شاعر من الشعراء على ذكر مآثر أبيه ، وتستغرق منه مساحة كبيرة من القصيدة ، وقد يشير الشاعر إلى ذلك إشارة خفيفة .

وأيضاً قد يشير الشاعر إلى مهنته إن كان عالماً أو أديباً أو سياسياً .

وقد يشير إلى كرم خصالة ورجاحة عقله وسعة حلمه وما شابه

ذلك .

فقد أشار كثير من الشعراء إلى عمل الأب فى الدنيا وعلمه وقلمه ومن هؤلاء الشاعر على عبدالعظيم فى قصيدته التى يبكى فيها والده ، والتى يقول فيها :

فأنـــــت أبى وأستـــــاذى وشيخى وخـــــدن طفولتى وهدى شبابى [١]

وتحدث عن ذلك فليكس فارس عندما وقف على قبر والده [٢] فقال:

أبـــى لقـــد جـــزت الثمانـين فى	**أرجـاء هـــذا المشـــرق الهاجد**
فكنـــت فـــى آفـاقـه شعـلة	**تهـــدى صـــراط الحق للجاحد**
ســـدت اليراعـــين بنـــور الحجى	**فـــى مستـــهل الـزمن الـراشـد**
فكنـــت مـــن (رستم) فى قدره	**وكنـــت من (مدحت) كالسائد**
حُـــران كـــل منهـــما لـــم يكـن	**يعـــــرف إلاَّ الحـــق من سائد**
ما اختــرت بعـــدهـــما سيـــدا	**غيـــر شبـــاة القلم الشارد**
يجـــول فـــى القطـــرين ما فوقه	**إلاَّ الضـــمير الـــحى من قائد**
مـــرت بـــك الدنيـــا ولـما تزل	**تحـــد جها بالنـــاظر الراصد** [٣]

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون . دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ١ .
(٢) توفى والده أثناء غيابه فقد كان كبيرا لمترجمى بلدية الاسكندرية وتوفى والده فى الرميحات من أعمال لبنان ، وتوجه الأديب فى الصيف ووقف على قبر أبيه . مجلة أبولو مارس سنة ١٩٣٣م ص ٨٠٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٠٨ .

وكذلك فعل الشاعر الدكتور رجب البيومى عندما رثى والده فقال متحدثاً عن دروسه فى المساجد ، وجهوده فى رمضان واعظا ومعلماً :

سطعت به موكبا هاديا فمن يسر إشعاعه يجذب
وتلقى الغضوب بصبر الحليم وتبسط فى العذر للمذنب
وتعطى الزكاة وما فوقها فتوسع من برّك الأرحب
وتمضى إلى الدرس بعد الغروب وكم لك فى الدرس من مشرب
تزيل الغوامض اذ تجتبى من السلسل العذب ما تجتبى
وتشرح آى الكتاب الكريم مفصّلة بحديث النبى
وتعمد للسهل حتى كأنك ترشف من منهل أعذب
فقهت الغريب كمن يفقهون ولكن لدى الدرس لم تُغْرِب [(١)]

وقد يتخذ الراثى من عدم تعلم والده انطلاقة نحو فخر آخر ، فهو مع عدم تعلمه ، فاق بذكائه وعقله المتعلمين . كما فعل زكى مبارك عندما مات والده فبكاه تحت عنوان ((حديث كله شجون)) فقال :

((وهل أرانى فى حاجة إلى الثناء عليك؟ لقد قضيت فى حداثتك أعواما قليلة فى المدرسة ، ثم بقيت طول عمرك فى عقل لم يظفر به من الناس إلاَّ القليل)) .

وما قيمة الدرس بجانب العقل الموهوب ؟ لقد كنت حُجّة على من

---

(١) ديوان حنين الليالى ط ١ سنة ١٩٨٣ مطبعة السعادة ص ١٦ .

يتوهمـــون أن العقـل من نصيب من يطلبون صحبة الفلاسفة والحكماء [١] .

وهكذا نرى أن الناثر قد جعل من عدم تعلم أبيه حجة له ، وفخرا يفتخر به لأنه رغم أنه لم يكمل سنوات الدراسة ، فقد فاق الآخرين ، ولا قيمة للدرس بجانب العقل الموهوب .

ولم يتوقف ذكر المآثر على العلم أو الأدب ، ولكن الشعراء قد سجلوا للآباء مآثر كثيرة ومتنوعة ، فها هو زكى مبارك يفصح عن سجايا والده فيقول :

((وأقسم ما رأيت أصبح منك وجها ، ولا أصح دينا ، ولا أصدق قولا ولا أفصح لسانا ، ولا أثبت جنانا ، ياحليف الكرم والجود ، ويانصير الضعفاء ، وياسناد المظلومين ... وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب أقسى من الصخر ، وعزيمة أمضى من السيف ، وتلك رزانتك أتمثلها فأزداد سخرية بالحوادث والخطوب ، وذاك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع الأحوال)) [٢] .

ومن المآثر التى يلح عليها الشعراء :التقى والدين ومداومة الصلاة وقراءة القرآن ، وإذا كان زكى مبارك يقسم أنه ما رأى أصح دينا من

---

(١) البدائع : زكى مبارك جـ٢ ص ٥٧ وقد نشرت هذه المرثية فى البلاغ ٨ مايو سنة ١٩٣٥ ثم ضمها كتاب البدائع بعد ذلك .

(٢) البدائع جـ ٢ ص ٥٧ .

والده ((وأقسم ما رأيت أصبح منك وجها ، ولا أصح دينا)) فقد صور لنا الدكتور رجب البيومى والده بصورة رائعة ، عندما صور المسجد وهو يسأل عن غيابه ، ويرنو بدهشة واستغراب لهذا الغياب الذى لم يعهده من والد الشاعر ، فقد تعود لقياه خمسا فى اليوم والليلة ، وقد تحير المحراب ذاهلا ، وحدق في الناس كالمغضب . هكذا رسم لنا ذلك فى بداية القصيدة فقال :

أبـــى أذن الفـــجر فى الغـــيهب	فكيـــف دعـــاك ولـم تذهـــب؟
عهـــدتك تنـــهض قبـــل الآذان	مشـــــوقا إلـــــى لحنـــه المطرب
تخــــف نشيـــط الـخطى واثبـــا	كأنــــك تـــرقى إلى كـــوكب
تضـــج الرعـــــود فـــلا تنثنـــى	وتمخـــــر فى العـــــارض الصيب
يســـاءل مسجـــدك الآن عنـــــك	ويرنـــو بدهشـــــة مستـــــغرب
تحــــــير محـــــرابه ذاهـــــلا	وحـــدّق فـــى النـــاس كالمغضب
ألـم يحتضنـــك تضـــم الصفـوف	وتشجـــى بتـــر تيلـــك المعجب
تجلـــى المصلـــون فـــى مـوكب	وأنـــت بـــه غـــرة المــــوكب
شديـــــد عليـــــه بعـــادك عنه	فكيـــــف تفـــارقه يا أبى ؟ [١]

لـم يسق الشاعر مآثر والده فى جمل تقريرية ، وإنمـا جسّد هؤلاء الرفـاق ، والمسجد ، والمحراب ، وشـهر رمضـان ، وجسـد اللقـاء اليومى المتمثل فى الصلاة ، واللقاء السنوى المتمثل فى رمضان وراح

(١) حنين الليالى ص ١٦ .

هؤلاء الصحاب يأسفون لغيبته ، ويحزنون لفراقه ، حتى أن المحراب حدّق فى الناس كالمغضب . ولم لا ؟ وقد تعود هذا الشخص بعينه ، صارت بينهما ألفة ، كيف يتقدم آخر للصلاة ؟ وشهر رمضان ! إنه شهر والده هو فارسه ، هو الذى يحيى ليله بالدرس والعبادة . فهو يقول :

أأول يوم لشهر الصيام يميل	**شعاعك للمغرب**
وقد كان شهرك فى قريتى	**عرفت به فى الحمى الطيب (١)**

وها هو شاعر آخر مثل أحمد عبدالمجيد الغزالى يتحدث عن والده ، واصفا إياه بصفاء النفس ، وتساميه وتعاليه عن الأهواء والأحقاد ، واصفا تلك النفس بأنها تعلقت بالعالم العلوى ، ولم تدخر سوى العمل الصالح للّه تعالى :

ترسل القولة الصريحة للّه	**وما عن رضائه من محيد**
صادر عن صفاء نفس تسامت	**وتعالت عن الهوى والحقود**
عشقت عالم السماء وباعت	**عالم الأرض بالرضاء الحميد**
عشت لم تدخر سوى العمل	**الصالح للّه لا لجاه العبيد (٢)**

وقد يتحدث الشعراء عن مآثر أخرى ، تتعلق بالأخلاق ، والصبر والجلد وذلك كما قال الشاعر أحمد أحمد العجمى :

---

(١) حنين الليالى ص ١٦.

(٢) مجلة الرسالة : السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥٠ .

سجايا كأن الأنبياء بطهرهم تواصوا بها واستخلفوك تواصيا
فكنت مثال الطهر والبر والهدى كريما حليما طيب النفس راضيا
وما زالت تحبونى تقى ومروءة وزهداً يرينى عاطل العيش حاليا [1]

فقد تواصى الأنبياء بهذه الخصال ، واستخلفوه وصيا عليها وذلك من شدة حرصه على تلك الخصال وإقامتها وتمسكه بها . حتى أنه يحبوه تقى ومروءة وزهدا .

❁ أثر الآباء في الأبناء :-

من الموضوعات التى اشترك فيها الشعراء ، الحديث عن الآباء ، وكيف أنهما كانوا يملئون عليهم حياتهم ، ويعيشون على هديهم ، وهكذا . وذلك لإظهار عظم الفجيعة فى الأباء . يقول الشاعر أحمد أحمد العجمى :

لقد كنت تسقينى وإن كنت صاديا وكنت تواسينى وإن كنت شاكيا
وقد كنت ترعانى وتأسو مواجعى فهيهات ألقى راعيا بعد آسيا [2]

* والشاعر على عبد العظيم يصور كيف كان والده معه :

وكم أرهفت فى الأزمات عزمى وكم سددت فى الجلّى حرابى
وكم قرّبت لى شمس الأمانى وكم ذللت لى شم الرقاب

(١) مجلة الثقافة : العدد ٣٩٥ السنة الثانية ٢٣/٧/ ١٩٤٦ ص ٢٧ .
(٢) المراجع السابق . الصفحة نفسها .

وكـــم سددتنـــى نـــحو المعـــالى ... وكـــم علمتنـــى خوض الصعاب
وكـــم حلّـــقّت بى فبلغت شأوا ... يفـــوق مـــداه أجواز السحاب (٣)

والشاعر الدكتور رجب البيومى يصور أثر الوالد بطريقة أخرى غير مباشرة فهو قد علم أن والده قد اتقى ربه ، وأن اللّه سيحفظ الابن بتقوى أبيه فهو آمن من غدرات الدهر بفضل صلاح الأب :

عـــرفت رضـــا اللّـــه عنــــــك ... فمـــا تخـــوفت مـــن حادث مرعب
أقـــــول إلهـــى سيدفع عنىأذى ... الدهـــر كيـــــلا يســـــاء أبى
ومـــا دام لـــى فـــى الحيـــاة فلـــن ... أحـــاذر مـــن دهـــرى القلب (٢)

وينقل لنا الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى صورة مـن رعايـة الأب وحدبه على الابن ، تلك الرعاية التى امتدت إلى الأحفاد :

هـــف نفسى وقد ضممت وليدى ... قـــائلا : ذاك طـــارفى وتليـــدى
واثبـــا حـــوله تنـــاغيه فـــرحـــان ... فيهتـــز هـــــــزة الأملــــــود
وتغنيــــه فـــى ضجيـــج وشـــدو ... ناسيـــا عنــــــــده وقـــار الحدود

* ويوضح أثر هذا الفقد على الوليد وعليه فيقول :

مـــن له بعد رحلـــة لـــك طالت ... فيناديــــــه صائحــــا ياحـــفيدى؟
لكـــأنى بـــه يسائلنــــــى الان ... ، وتلـــــك الـــدموع سؤال الوليد
حيــــن يـــــلقى بنظرة لى حيرى ... ويجيــــــل العينـين بـين الشهـــود

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ١.

(٢) حنين الليالى ص ١٦ .

دافـق الدمـع فى صراخ كئيب ذقـت منـه مـرارة التسهيد
يرسـل النظـرة الأسيفـة وهى تتنـدّى فـى طـرفه المكـدود
موحـش شـاقه حـنو عطوف ما جفـاه فـى يقظـة وهـجود
حينمـا يشتـكى تهدهد شكواه ليغفـو فـى صـدرك المجهود
فـإذا نـام كنـت أحلى رؤاه أى حلـم يـرفّ فيـها سعيد ؟ [1]

* ويرسم الشاعر أحمد شوقى صورة لرعاية والده له ، ووده له ، وحدبه عليه :

مـا أبـى إلاّ أخ فـارقتـه ودّه الصـدق وود النـاس مـين
طالـما قمنـا إلـى مائـدة كانـت الكسـرة فـيها كسرتين
وشـربنا مـن إنـاء واحـد وغسلنـا بعـد ذا فيـه اليـدين
وتمشينـا يـدى فـى يـده مـن رآنـا قال عنـا أخوين [2]

وهى صورة سعيدة باسمة ، شارك فيهما الأب ابنه الحياة بمرها " صارت الكسرة فيها كسرتين " وحلوها " وتمشينا يدى فى يده من رآنا قال عنا أخوين " .

ويتحدث أحمد محرم [3] عن ذلك الصرح الشامخ الذى بناه والده ،

---

(١) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥٠ .

(٢) ديوان شوقى جـ٣ ص ١٥٤ .

(٣) ولد أحمد محرم فى يوم السبت ١٥ من المحرم سنة ١٢٩٤ هـ انظر مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد / ١ / ١١٤ . وقدمات أبوه وعمر الشاعر أربع وأربعون سنة انظر خمسة من شعراء الوطنية ص ١١ .

وعلمهم إياه ، لقد بنى صرحا شامخا من الخلق الرفيع ، وأدبهم به فنفعهم .

* يقول الشاعر :

ويخلد ما بنيت لنا ويبقى   إذا البنيان أدركه العفاء
بنيت لنا من الاخلاق صرحا   دعائمه المروءة والوفاء
نعد المكرمات لنا ثراء   إذا ما القوم غرهم الثراء (١)

❁ المرض والشيخوخة والموت :

وهي أفكار ترد في رثاء الأبناء للآباء ، يتحدثون فيها عن فترة الشيخوخة وكيف كانت صعوبتها وكيف تحملها الأب ، ويعرّجون على المرض والطب والقضاء ، ويتحدثون عن الموت وأثره . وقد اختلف الشعراء في طريقة تناولهم لهذه الافكار ومن الشعراء الذين صوروا مرحلة الشيخوخة وقد رحل الأصدقاء ، وتركوا الأب وحيدا ، الشاعر حسن كامل الصيرفي عندما قال :

ودعتهم جميعهم في رحلة طويلة لعالم سحيق
وظلت ترقب المدى في عزلة بصمتك المفلسف العميق
ترقب كل شارق وغارب وزائف وخادع البروق
ببسمة ساخرة مع المسا وبسمة تستقبل الشروق

---

(١) ديوان الشاعر أحمد محرم جـ٢ مطبعة الفتوح سنة ١٣٣٨هـ سنة ١٩٢٠مص١٥.

لكنني أن الذى يرقب فيك لهفة كلهفة الغريق
يرجو بلوغ شاطىء مزدهر منور مخضوضر أنيق
أحس ما تحس من أسى لما فقدت فى مجاهل الطريق (٢)

فهو هنا يصور والده ، وقد راح يرقب الحياة من بعد ، ببسمة ساخرة بعد أن ودّع الصحاب فى رحلة طويلة لعالم سحيق ، وجلسته هذه تثير الأسى والإشفاق من الابن لهذا الأب الذى فقد مجاهل الطريق وراح يرقب كل شارق وغارب وزائف وخادع البروق . وقد صور لنا الشاعر أحمد أحمد العجمى مرض والده ، ومعاناته الألم ، وصور شدة هذا الداء الذى لا يعدله ، إلاّ ما يحس به الشاعر من جزع وحزن على والده :

تعانى أليم الداء لاداء مثله سوى ما بقلبى جازعاً لك داعيا

ويشير إلى عجز الطبيب والطبيب غير مستطيع إلاّ إذا أراد اللّه فيقول :-

وتنعى على نطس الأطباء عجزهم وأنى لهم ما لم يك اللّه شافيا

* ويعرج على الموت فيصوره فى صورة خبيثة ، خسيسة :

سعى الموت فى خبث إليك وخسة كما تفعل الأفعى – وقيت الأفاعيا

* ويشير إلى طول مدة مرضه وقسوتها عليهم :

بليل من الأحزان طالت همومه شهوراً حسبناها سنين ثمانيا (٢)

---

(١) ديوان صلواتى أنا : حسن كامل الصيرفى طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٢ .
(٢) مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ السنة الثانية ٧/٢٣ /١٩٤٦ ص ٢٧ .

* ويصوغ الشاعر أحمد شوقي الحديث عن المرض والطبيب والموت في صورة خبرية تقريرية فيقول :

وطبيب يتولى عاجزا — نافضا من طبه خُفيّ حنين
إن للموت يدا إن ضربت — أوشكت تصدع شمل الفرقدين
تنفذ الجو على عقبانه — وتلاقي الليث بين الجبلين
وتحط الفرخ من أيكته — وتنال الببغا في المئتين [1]

ويتحدث زكي مبارك عن أيام المرض وكيف أنه كان درسا في الصبر علّمه والده إياه :

((وآخر درس تلقيته عنك ، هو بسماتك أيام المرض ، ويالها من أيام لقد كنت تعاني أهوالاً تندك لها الجبال ، ومع ذلك لم تحزن ولم تبتئس ولم تفارق الابتسامة شفتيك)) [2] .

* وفكرة عجز الطبيب أمام القضاء ، تداولها الشعراء ، ومنهم الشاعر أحمد محرم عندما قال :

نعاك لنا طبيبك إذ تولى — يجيد به التأسف والحياء
يحار الطب إن علقت بنفس — منيتها وتعيا الكيمياء
يضل العلم آونة فيهذي — وبعض الداء ليس له دواء [3]

---

(١) الديوان جـ٣ ص ١٥٤ .

(٢) البلاغ في ٨ مايو سنة ١٩٣٥ ، البدائع جـ٢ ص ٥٧ .

(٣) الديوني جـ٢ مطبعة الفتوح سنة ١٣٣٨هـ.

❁ **أثر الموت على الابن :**

لقد تحدث الشعراء عن فقد الآباء ، وأثر ذلك في نفوسهم ، ومجتمعهم وإن اختلف الحديث ، فشاعر يود أن يلحق بأبيه ، بعدما مل الانتظار ، ويرى أن انتظاره في الدنيا عقوق للآباء ، ولكن الطريق قد خفى عليه ، ومع ذلك فهو ما زال يمشي وراء الركب ليلتقى على وسائد الثرى بمن يحب :

* يقول الشاعر حسن كامل الصيرفى :

أعيش بعد ركبكم منتظرا وذاك منّى منتهى العقوق
أين الطريق يأبى ، قد خفيت وأين أنت الآن ياصديق؟
غابت وغبت وانتهى في لحظة تاريخنا العريق
أبوة أخوة صداقة فقدتها في خفقة الشهيق
أمشى وراء ركبكم بخطوى المتئد المقدر المشوق
أرقب كل شارق وغارب وزائف وخادع البروق
أرجو نهاية الخطى إلى المدى أرجو انطفاء ذلك البريق
ليلتقى على وسائد الثرى هنا المشوق بعد بالمشوق [1]

* ومن الشعراء من صور حاله بعد فقد والده ، بانه قد أصبح يتيماً ، حتى وهو كبير :

---

(١) ديوان صلواتى أنا ص ٦٣ . طبع دار المعارف سنة ١٩٨٢ م .

تيتمـــت بعـــدك مهمـــا كبرت	وأصبحـــت فـــي زمـرة الشيـــب
شعـــــور الطفـــولة يحتلنـــــي	فأنشـــد عونــك فـــي مـــأربـي
عرفـــت رضـــا اللّــه عنك فما	تخوفـــت مـــن حـادث مـرعـب
أقـــول إلـــهي سيدفـــع عني أذى	الـــدهر كيــــلا يســـاء أبـــي
ومـــادام لي فـــي الحيـــاة فلن	أحـــاذر مـــن دهــــرى القلـــب
فلمـــا مضيـــت أصيـــب كياني	بصـــدع وراءك لـــم يـــــرأب
أبـــي قـــد تلاشيـــت مثـل الهباء	فإن عفـت ضعـــفي فـــلا تعتب [١]

هكذا يصور الشاعر حالة ويتمه ، وهو لا يخبرنا أنه قد أصبح يتيما فحسب ولكنه ارتدّ إلى طفولته ، احتلته وعاد إليه خوفه وضعفه كأنه طفل صغير ،لقد كان يعرف أن اللّه يحفظه لوجود والده ، إكراما لوالده ، كان يأمن تقلب الدهر في حياة والده والآن تصدع الكيان ، وتلاشى الشاعر من هول الفجيعة .

والإشارة إلى اليتم بعد فقد الأب ، رغم كبر الشاعر ، ودخوله في زمرة الكهول إحساس أحس به كثير من الشعراء . فها هو الشاعر الأمير عبد اللّه الفيصل ، وهو يبكي أباه- المرحوم جلالة الملك فيصل- يصور أثر الفجيعة على نفسه فيقول :

أي ذكـــــرى تعـود لي بعد عام	لـــم تـــزل فيـــه نازفات جـراحي
أي شهـــــــر ربـيع عمري ولي	فيـه وارتـاع فـي ضلوعـي التياعي

---

(١) ديوان حنين الليالي . ص ١٦ .

أى خطب مروع كنــت أخشاه فأبلى عــزمى وفـل ســلاحى
أى يتــم أذل كبــر أنينــى وأرانــى دُجُـن المسا فى صباحى
أى يــوم ودعــت فيـه حبيبى ثــم أسلـمت مهجتـى للنــواح
إنــه يــوم ميتــى قبــل مــوتى واختــلاج الضياء فى مصباحى [٢]

والشاعر يشير هنا إلى إحساسه باليتم ، الذى فجّر أنينه وحزنه وأظلم صباحه وعمره .

ويسأل زكى مبارك مستفسراً يائسا من عدم رؤية والده ، وقد تركه يتيما فيقول : ((أبى : أفى الحق أنى لن أراك ؟ ، وأنى صرت من الأيتام الكهول ؟)) [١] .

لقد أصبح يتيما حتى وهو فى سن الكهولة .

* ويلجأ الشعراء فى تصوير ما أصابهم من حزن إلى الدمع والبكاء فهو ملاذهم وراحتهم :

بكيــت إلى أن كــدت أعتنق البكا عقيـدة محـزون قضـى العمر باكيا
وقد كنت لا آسي ولا أعرف الأسى فهانــذا قاسيــت فيـك المآسيــا
تعبّـدت بالآلام حتــى كأنهــا تسابيــح أواه رأى العيــش فانيــا
ثكلــت شبــابى والعزاء كليهما وأصبحــت رسمـا للجـوى متداعيا
وصــرت كتمثـال الشجـون بقفرة يعانــى الريـاح الهوج غبرا سوافيا

(١) مجلة الفيصل . العدد ٢١ ص ٩٥ .
(٢) البلاغ ٨ مايو سنة ١٩٣٥ ، والبدائع جـ٢ ص ٥٧ .

وكفنـــت رأسي باليدين وبالجوى　　علـى حرقـات تجعـل الفكر داميا
كأن بقلبـــي مأتمـا ثـار شـجوه　　وصـاحـت منايـاه وكانـت أمانيا
هجرت الورى حتى الحبيب المصافيا　　وعـم الأسى حتى الحقود المداجيا
رأى الدمع يكوى مقلتي ويكتـوى　　فـواساهمـا بالدمـع ينساب هاميا

* فالدموع هي ملاذ الشاعر عند هول الفيجعة ، إذا مـالاذ بـالصبر معتصما تفجر الدمع من مآقيه ، ليشفي غليل قلبه ، وما هو بشاف هـذا الغليل :

مصابـي فيـك ياأبتـي عظيم　　وهل في النـاس أفـدح من مصابي
حسبـت لكـل فاجعـة حسابا　　وما كـانت وفـاتك في حسـابي
دهيـت بوقعهـا فانهـار عـزمي　　وطاشـت حكمتـي وخبـاصوابي
إذا مـالـذت معتصما بصـبري　　تدفـق مـدمـعي مثـل الرباب
وهـل تشفـي الدموع غليل قلب　　يـذوب أسى مع الدمع المذاب [(١)].

* وقد يصـور الشاعر غيـاب الفقيد من خـلال حاجـة طفلـه إليـه وذلك يتصور إذا كان الفقيد زوجة ، كما فعل أحد الأعراب حين قال :

فو اللّـه مـا أدري إذ الليـل جنني　　وذكرنيهـا أينـا هـو أوجـع
أمنفصـل عـن ثـدى أم كـريمة　　أم العـاشق النابي به كل مضجع [(٢)]

والطريف هنا أن الشاعر في رثـاء الآبـاء قد استخدم هـذا المعنـى

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون ص ١.

(٢) الرثاء : الدكتور شوقي ضيف ص ٢٦ .

ووظّفه لخدمة موضوعه ، فهو يبكى فى أبيه غيابه عن حفيده أيضا ، لأنه هو الذى كان يداعبه ويناغيه ويملأ حياته وها هو طفله يعانى الإحساس بفقد الجد ، ويبحث متأملا فى وجوه الحاضرين عن جده ، ويبكى فقده وضياعه . أين الذى كان يحنو عليه قائلا :ذاك طارفى وتليدى ، واثبا حوله يناغيه ويغنيه فى ضجيج وشدو ناسيا وقار الجدود ثم يعكس أثر غياب الجد وفقده على هذا الصغير وعلى الشاعر فيقول:

لهف نفسى وقد ضممت وليدى	**قائلا ذاك طارفى وتليدى**
واثبا حوله تناغيه فرحان	**فيهتز هزّة الأملود**
وتغنيه فى ضجيج وشدو	**ناسيا عنده وقار الجدود**
من له بعد رحلة لك طالت	**فيناديه صائحا ياحفيدى**
لكأنى به سائلى الآن	**وتلك الدموع سؤال الوليد**
حين يلقى بنظرة لى حيرى	**ويجيل العينين بين الشهود**
دافق الدمع فى صراخ كئيب	**ذقت منه مرارة التسهيد**
يرسل النظرة الأسيفة وهى	**تتندى فى طرفه المكدود**
موحش شاقه حنو عطوف	**ما جفاه فى يقظة وهجود [1]**

(١) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥٠ .

الدعاء للأب :

وهى ظاهرة شاعت عند كثير من الشعراء ، مع اختلاف صور الدعاء ، فقد يكتفى الشاعر بالدعاء فى صورة تحية يختم بها الشاعر قصيدته ، يقول الشاعر أحمد العجمى :

عليـــك سلام اللّـه فى الجنة التى   أراك بها تحيـــا وتخـــلد هانيا (١)

* ويقول الشاعر أحمد محرم خاتما قصيدته بالدعاء :

عليكـــم مـــن صـــلاة اللّـه روح   وريـــحان وبـــرّ واحـتفـــــاء (٢)

* وقد يعمق الشاعر الدعاء فى ختام قصيدته :

أبـــى نـــم فـــى جوار اللّـه وانعم   بمـــا قدمت من حسن الثـــــواب
تبادلـــك المـــلائكة التـــحايـــا   وتجهـــــر بالثنـــاء المستطـــاب
وحسبـــك ما تـــركت من البواقى   وما استقبلـــت من حسن المآب (٣)

* ونرى شاعراً آخر كالدكتور رجب البيومى يغفو إغفاءة خفيفة فيرى والده يعيش فى جنة الخلد فيروح يتمتم بقراءة الفاتحة :

وقفـــت علـــى القبـــر مستروحـــا   فلـــم أذر دمعـــا ولـــم أندب
عرفـــت بأنـــك لســـت هنـــا   فـــأنت لـــدى الخلـــد فـــى مـــوكب

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .

(٢) ديوان أحمد محرم جـ٢ ص ٢١٥ .

(٣) مقدمة ديوان ابن زيدون ص ١ من قصيدة لعلى عبدالعظيم فى والده.

يـرفّ جنـاحـك مـن فـوقه   على فنن فى الذرى مخصب
وينفـح حـولـك ورد الربى   وقـد مـاس فى فـرعه الأهدب
وتحتـك ينسـاب مـاء الجنان فإن   تـرن مـن خمـرة تشـرب
وقفـت سعيـد المنـى راضياً   كأنـى لـدى القبر فى يثرب
وتمتمـت أقـرأ أم الكتـاب   بـريـدا يطيـر ولـم يكذب (٤)

فالشاعر هنا يرى أن والده فى جنة الخلد جزاء لما قدمه فى الدنيا ، وهو أمل ورجاء ودعاء من الشاعر لوالده أن يكون كذلك فعلاً .

وهى نفسها تلك الأمنية التى ساقها ، وهى سمة المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم ، فقد وعد المتقون جنّة عدن ، فليتمتع بظلها الممدود :-

جـل فيـك العـزاء ياوالدى   البـر وأه مـن يـومك المشهـود
شئـت أن ترتقى لربك فى الفجر   مـع النـور هـاديا فـى الصعـود
سمـة المؤمنيـن يسعـى سناهم   بيـن أيـديهـم بـدار الخلـود
وعـد المتقـون جنـة عـدن   فتمتـع بظلـهـا المـمدود
وأنهـل السلسل النميـر رحيقاً   شعشعوها فى حوضها المورود (٢)

ومع ذلك نجد بعض قصائد رثاء الآباء ، وقد خلت من هذا الدعاء ربما لأن القصيدة قد قيلت بعد موت الأب بفترة طويلة فجاءت لتتناول

---

(١) ديوان حنين الليالى ص ١٦ .

(٢) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٤٥٠

موضوع الموت بصفة عامة ، فهو يفلسف الحدث ويعلو عليه وينظر من خارجه كما فى قصيدة الشاعر أحمد شوقى ، وقصيدة فليكس فارس فى رثاء والده ، وكذلك قصيدة الشاعر حسن كامل الصيرفى .

فقد خلت تلك القصائد من الدعاء للأب ، وسلكت جانب النظرة الفلسفية لموضوع الموت والفقد عموماً .

۞ الوقوف على القبر :

وقليل من الشعراء من وقف على قبر والده ، مع اختلاف الغرض من هذه الوقفة . فشاعر مثل فيلكس فارس لم يقف وقفة الباكى ، ولا وقفة المستوحش ، وإنما وقف وقفة متأملة متفلسفة ، راح فى هذه الوقفة يجثو على القبر منضما لنفسه مستشعرا ذات أبيه وروحه وكيانه:

أجثو على قبرك لا أشتكى ... مرارة المستوحش الفاقد

أسجد منضما لنفسى وهل ... يخلق دمع الشوق بالساجد؟

مابـاد من ذاتك إلاَّ الضنى ... وهل سوى الطارىء من بائد (١)

وكذلك الدكتور رجب البيومى عندما وقف على قبر والده ، فلم يذر دمعاً ولم يندب . فقد تحقق من رحمة اللَّه لوالده ، لأعماله الصالحة :

---

(١) أبولو : مارس سنة ١٩٣٣ ، ص ٨٠٩ .

وقفت على القبر مستروحا فلم أذر دمعا ولم أندب
عرفت بأنك لست هنا فأنت لدى الخلد فى موكب [١]

ومن عجيب وقفات القبر وبكاء الوالد ، تلك الوقفة التى وقفها الشاعر على قبر أبيه ، وعنون لقصيدته بهذا العنوان ((على قبر أبى)) وراح وسط ظلمة الليل يتحسس قبر والده ليؤدى حقه ، ويذرف الدموع على هذا القبر .

ولكنه عندما وقف على قبر ابيه راح يشتكى أثر الهوى والحب على نفسه ، ويسأل أباه أن يشفع له عند ربه ليرق قلب ليلى ويجمع الشمل بينهما أو يلقى الموت فيستريح :

* يقول الشاعر :

وكان الليل حولى مكفهرا وكان على القبور يموج بحرا
وكنت أزورها قبرا فقبرا أغادر حفرة وأؤم أخرى
بنفس جمة الآلام حرّى
دخلت مدينة الأموات وحدى وكان الليل كالزنجى يبدى
إهابا أسودًا فسحبت بردى علىّ وصرت فى رفق أؤدى
أبى حقا دموعى منه تترى
مشيت وكنت أعثر بالعظام عظام الهامدين من الأنام
مبعثرة تطل من الرغام مشيت ولم أخف مما أمامى

(١) ديوان حنين الليالى ، ص ١٦ .

ولــو أحــد رآنــي لاقشعــرا

مشيــت خــلال هــاتيك القبور كأنــي الميــت قــام مــن الحفيـر

فصــاح البــوم فى صوت جهور ألا ياحــى رفــقا فــى المسيــــر

لئــلا توقــظ الأمــوات طــرًا

مشيــت هنــاك وحــدى لا أبالى بصــوت البــوم يأتــى عن شمالى

تصفحــت القبــور بشــأن تــالى سطـــورا فــى قــراطيس بوالى

إلــى أن شــمت قبرأبى الأغــرًا

هنــاك هنــاك ملت على الضريح بقلــب مــن هــوى ليلى جريح

فقلــت بلهفــة يانفــس بــوحى إلـى المــوتــى بســرك أو فنــوحى

مــن اليـــأس الــذى فيــك استقــرا

فخلــت كـأن روح أبـى الضجيع هــوت تــوا تــرانـى فى خشوع

أضــم القبــر كالطفــل الرضيــع وأذرف فــوق مـرمره دمــوعى

تحـاكــى إذ تسيــل عليــه دُرا

وصحــت فحــرّك الأحــلاك صوتى إذا يــانفــس فــى يــوم رجـــوت

هــدوءً فــى حياتــك كم صبوت إليــه ســدى فــذلك يــوم موتــى

غــداة أنــال فــى قبــر مقــراً

أبــى انظــر كيــف خــلاّنى هوايــا حطــام سفينــة ذهبــت شظايــا

علــى بحــر الهــوى إلاَّ بقــايــا بهــا قــذفــت إلــى الشــط المنــايا

ألا بئــس الهــوى شطــا وبحـرا

* إلى أن يقول الشاعر طالبا من أبيه الشفاعة عند ربه لينقذه مـن

هذا الحب ويشفيه من هذا الضنى :

أبـــى اشفــع لى بربـــك عند ربى ليرثـــى فـــى هـــوى ليلى لقلبى

وإن لـــم يقضـــها لـــى فليلبـــى ندائـــى للـــردى ويجـــاز حبّـــى

لليلى الموت ، نعم الموت أجرا (١)

وواضـح أن الشـاعر قد بـرح بـه الهوى ، فتـاه فـى ظلمـة الليـل يتحسس طريقه وسط القبور ، وظلمة الليـل ، وصـوت البـوم والبلـى ، إلى أن تنسم أريج قبر والده ، فراح يبوح بسـره ، ويتخفف مـن وطـأة حمله ، ويشكو الضنى والسقم ، وتحطم سفينه فى بحر الهوى ، طالبـا من أبيه أن يكون شفيعا له عند ربه ، أن يرق قلب ليلى له ، أو يمـوت فيستريح من هذا العناء.

۞ التأسي والعزاء :

وقد كـان مـن عـادة الشـعراء السـابقين أن يضربـوا الأمثـال فـى المراثى ، بالملوك الأعزة والأمم السالفة ، والوعول الممتنعـة فـى قلل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض وبحمر الوحش المتصرفـة بيـن القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول أعمارها .

وذلك فى أشعارهم موجود ، لا يكاد يخلو منه شعر .

---

(١) مجلة أبولو : أبريل سنة ١٩٣٤م ص ٧٠٠ المجموعة الكاملـة لمجلـة أبولـو المجلد الأول : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فأما المحدثون فهم إلى غير هـذه الطـريقة أميل [١] وفـي قصيدة رثاء الآباء فى العصر الحديث نرى محاولة الشعراء للتصبر وعدم الجزع والتماسك . فمنهم من يعجز عن الصبر ويضعف أمام المصـاب ، ويتبعثر مسلما نفسه لدمعه الذى لا يشفى غليلا وذلك مثل قول الشاعر على عبد العظيم :

مصابــي فيــك يا أبتــي عظيم	**وهـل فى الناس أفدح من مصابى ؟**
حسبــت لكــل فاجعــة حسابا	**ومـا كانـت وفاتـك فـى حسابى**
دهيــت بوقعــها فانــهار عـزمى	**وطاشــت حكمـتى وخبـا صوابى**
إذا مـا لــذت معتصمــا بصبرى	**تدفـق مدمعـى مثـل الـربـاب [٢]**

ومنهم من يجد فى التصبر ملاذا ، وفى عزاء الأصدقاء تأسيا وتصبرا .

* ومن هؤلاء الشاعر أحمد العجمى الذى عزّاه الأصدقاء فى وفـاة والده ، فختم قصيدته بقوله :

ولــولا عــزاء الأصدقاء وشعرهم	**شفــاء لقلبــي غـص بالعيش قاليا**

وهذا هو الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى ، وقد عزاه الشاعر أحمد مخيمر يختم قصيدته بأثر هذا العزاء فى نفسه فيقول :

يأخـــي والعـــزاء منـــك جميل	**ما لجــرح القـــصيد غــير القصيد**

---

(١) العمدة ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

(٢) مقدمة ديوان ابن زيدون ، ص ١ .

مسحـــت أدمعـــي دموعك تنثال   عقـــودً أكـــرم بهـــا من عقود [٣]

* ويلجأ الشاعر أحمد شوقى كما لجأ السابقون إلى التأسى بالأمم السابقة وسوق الحوادث فى محاولة للتأسى والتصبر :

يـاأبـــى ما أنـــت فـــى ذا أول   كـــل نفـــس للمنايـا فرض عين
هلكـــت قبلـــك نـــاس وقـــرى   ونعـــى الناعـــون خيـــر الثقلين
غايـــة المرء وإن طـــال المدى   آخـــذ يأخـــذه بالأصـــغرين
وطبيـــب يتـــولى عاجـــزا   نافضـــا مـــن طبـه خفى حنين
إن للمـــوت يـــدا إن ضـــربت   أوشكت تصدع شمل الفرقدين [٢]

تمنى الفداء :

وهى رغبة تمناها بعض الشعراء فى قصائدهم ، معلنين أن الموت لو كان يقبل فدية لقدموا أنفسهم عن طيب خاطر فدية للآباء.

ومن هؤلاء الشاعر أحمد العجمى :

أبى ياأبى لو يقبل الموت فـديـة   فـديتك بالآمـال خضـرا زواهيا

وهو لم يلق هذه الكلمة ابتداء ، ولكن بعد أن دمى فكره ، وأقام مأتما بين ضلوعه ، وهجر الورى ، وعمّ الأسى ، وكوى الدمع مقلته ،

---

(١) هؤلاء الأصدقاء هم : عبدالعزيز السعدنى ، وتوفيق عوض أباظه ، ومحمد الصادق سعود ، وحلمى أبوالنجا وغيرهم مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .

(٢) ديوان أحمد شوقى جـ٢ ص ١٥٤ .

وعندها تمنى لو أن الموت يقبل فدية :

وكفنـــت رأسي باليدين وبالجوى   على حرقـــات تجعل الفكر داميا
كــأن بقلـــبي مأتـــما ثار شجوه   وصاحت منايـــاه وكانـــت أمانيا
هجرت الورى حتى الحبيب المصافيا   وعم الأســـى حتى الحقود المداجيا
رأى الدمع يكوى مقلتي ويكتـــوى   فواساهمـــا بالدمع ينساب هاميا [١]

وكذلك الشاعر الأمير عبد اللّه الفيصل ، وقد فجع في والده جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز ، فراح يرسل زفرة تلو أخرى ، ومنها تلك القصيدة التي أنشدها في ذكرى وفاة والده :

أي ذكـرى تعـود لـي بعـد عـام   لـم تـزل فيـه نـازفـات جراحي

* وفيها يقول متمنيا فداء والده الذي مات فماتت مع الشاعر أفراحه :

ليتني كنـــت فديـــة للـــذي ما   ت فمـاتت مـن بعـده أفراحي [٢]

وهذا هو زكي مبارك يسوق هذه المعاني بصورة أخرى عندما يقول :

وكنت أود أن يطول عمرك ، حتى تبلل قبري بدموعك ، ولكن اللّه وقاك شر الثكل ، وأعد لي فيك فواجع الأحزان ، فكانت رحمته بك

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .

(٢) مجلة الفيصل العدد ٢١ ص ٩٥ .

من بعض نعمه عليك [١] .

❁ صور فردية :

* نعم صور فردية تناثرت عند شاعر بعينه دون آخر . ومن هذه الصور قول الشاعر على عبدالعظيم :

جلالك ياأبى يسمو بنفسى ... ويرفعها إلى أسنى الرحاب
فلو أن الأبوة بانتخاب ... لما آثرت غيرك بانتخاب
ولو لم أنتسب لك كان أقصى ... رجائى أن أضمك لانتسابى [٢]

فهو فى هذه الأبيات يصور هذه الأبوة وجلالها . هى أقصى مناه وغاية . رغباته فلو كانت الأبوة بانتخاب ، لما آثر غيره بالاختيار ، لخلائقه التى بسطها فى الأبيات السابقة . وهذا النسب الذى شرف بانتسابه اليه ، لو لم ينتسب اليه لكان أقصى أمانيه أن ينال هذا الشرف . وهى صورة فردية لم ترد عند الشعراء الأخرين ، وإن كان محصلتها ونتيجتها موجودة ، ألا وهو الشرف والرفعة والحب الخالص لوالده .

ومن تلك الصور الفردية ما ساقة زكى مبارك مخالفا رأى الجميع ، فالكل يعتقد أن الأب إذ مات وترك أطفالا صغارا ، كان ذلك أدعى

(١) البدائع جـ٢ ص ٥٧ .
(٢) مقدمة ديوان ابن زيدون ص ٢ .

للإحساس باليتم والفقد ، ولكنه يصادم هذا الرأى ، ويعكس تلك القاعدة فلو مات أبوه وهو صغير لشغله عنه الجهل بقدره ، ولكنه مات بعد أن عرف قدره وقيمته ، فكانت الفيجعة أعظم والمصيبة أعم : أفى الحق أنى لن أراك ، وأنى صرت من الأيتام الكهول ؟ لو تركتنى وأنا طفل لشغلنى عنك الجهل بقدرك .

أما الآن وقد عرفت فضلك فكيف الصبر عنك وكيف السبيل إلى نسيان أياديك ؟ [١] .

ومن هذه الصور الفردية ما أعلنه الأمير عبد اللّه الفيصل وهو يبكى أباه متعجبا من حاله ، كيف يرثى أباه بالقوافى ، مع علمه بأن القوافى مهما حملت من بلاغة ، وأوتيت من إعجاز فهى قاصرات الجناح :

كيف أرثيك ياأبى بالقوافى ... وقوافىّ قاصرات الجناح [٢]

* وهى صورة ساقها الشاعر الدكتور محمد رجب البيومى عندما قال :

أبى رمت وصفك مستجمعا ... بفكر كليل السنا متعب

أأبلغ مما أريد المدى ... وكيف وحزنى قد شط بى

---

(١) البدائع جـ٢ ص ٥٨ .

(٢) مجلة الفيصل العدد ٢١ ص ٩٥ .

فهو قد قصد وصف خلائقه وخصاله ، ولكن أنىَ له ذلك ، والفكر كليل متعب ، والحزن قد شط به فهو لن يبلغ ما يريد .

ومن هذه الصور أيضاً عدم توقع موت الأب ، فالشاعر قد أعدّ لكل فاجعة حساباً ، ولكن هذه الفجّيعة لم تكن فى الحسبان

* وقد صور ذلك الشاعر على عبدالعظيم عندما قال :

حسبت لكل فاجعة حسابا　　　وما كانت وفاتك فى حسابى

وهى صورة مسها زكى مبارك برفق وهو يبكى والده عندما قال : لقد كنت آمل أن يظل عودك يقاوم الشيخوخة زمنا طويلا وكنت أتعزى كلما تذكرت أن أمامى فرصا كثيرة بمشاهدة وجهك ، والتمتع بحديثك ، فما بال الأقدار تعجل هذا الشقاء الذى كنت أرجو ألا أرزأ به إلاّ بعد أعوام طوال (١) .

ومن الصور الفريدة ايضا ما صوره زكى مبارك فى مرثيته ، من فائدة ونفع للموت ، عندما قال : أبى : أيسرك أن تعلم أن موتك أورثنى بعض النفع ؟ لقد كانت خطوب الزمان لا تؤذينى إلاّ لأنها تؤذيك ؟ واليوم وقد تنزّه قلبك عن الحزن فلتفعل الأيام ما تشاء ، فسألقى صرف الدهر بقلب أقسى من الموت وأعنف من كيد الزمان(٢).

(١) البدائع جـ٢ ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

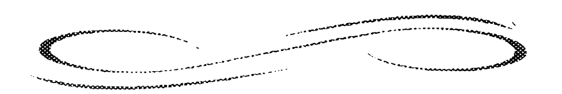
فهو هنا يصور للموت فائدة ، فلقد كان يخشى الدهر قبل ذلك حرصا على أبيه وحدبابه وإشفاقا عليه ، أما وقد ذهب الأب ، فلم يعد يخاف الدهر ومصائبه ، فلتفعل الأيام ما تشاء .

* ومن الصور الفريدة أيضا ما صوره الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالي من حاجة طفله إلى جده ، وصوّر إحساسه بالفقد من خلال دموع طفله الصغير :

لهف نفسي وقد ضممت وليدى	**قائلا ذاك طار فى وتليدى**
واثبا حوله تناغيه فرحان	**فيهتز هزة الأملود**
وتغنيه فى ضجيج وشدو	**ناسيا عنده وقار الجدود**
من له بعد رحلة لك طالت	**فيناديه صائحا ياحفيدى؟**

لكأنى به يسائله الان وتلك الدموع سؤال الوليد

حين يلقى بنظرة لى حيرى	**وبجيل العينين بين الشهود**
دافق الدمع فى صراخ كئيب	**ذقت منه مرارة التسهيد**
يرسل النظرة الأسيفة ولهى	**تتندى فى طرفه المكدود**
موحش شاقه حنو عطوف	**ما جفاه فى يقظة وهجود [1]**



(١) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥١ .


الفصل الثاني
الدراسة الفنية

الفصل الثانى

رثاء الأبناء للآباء : دراسة فنيــــــة

❋ مقدمة القصيــدة :

لقد راحت الدراسة تتصفح دواوين الشعراء المحدثين لترى بداية قصيدة الرثاء ، كانت البداية مع ديوان شوقى . وهو يبدأ قصيدته من أول بيت فى الرثاء مباشرة ودون مقدمات . والأمثلة على ذلك كثيرة .

* فهو يبدأ قصيدته فى رثاء عبدالحميد العلايلى بقوله :

لقـــد لبىّ زعيمـــكم النـــداء   عـــزاء أهـــل دميـــاط عزاء

* وقوله فى ((أبو هيف بك)) :

اجعـــل رثاءك للرجـــال جزاء   وابعثـــه للوطن الحزين عـــزاء

* وقوله فى عمر المختار :

ركـزوا رفاتك فى الرمال لـــواء   يستنهـض الــوادى صبــاح مساء

* أو قوله فى سليمان باشا أباظة :

مــن ظـــن بعـــدك أن يقول رثاء   فليرث مـــن هــذا الورى من شاء

ولكننا نرى قصيدة لشوقى مثل ((شكسبير)) يتحدث فيها شوقى عن انجلترا فى مقدمة طويلة تزيد على أحد عشر من الأبيات حتى

يخلص إلى الحديث عن شكسبير بقوله :

ما أنجـــبت مثل شيكسبير حاضرة ولا نمت من كريـــم الطير غنـــاء

ولكن هذه القصيدة كانت فى احتفال المجمع العلمى بانجلترا سنة ١٩١٦م بمناسبة مرور ثلاث مئة عام على وفاته ، فهى حديث عن انجلترا ، وعن شيكسبير . وترى قصيدته فى ((مصطفى باشا فهمى)) وقد بدأها بالرثاء مباشرة :

يأيهـــا النـــاعى أبا الـوزراء هـــذا أوان جلائـــل الأنبـاء

* وفى حافظ إبراهيم:

قـــد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصـــف الـــموتى من الأحياء

* وفى رثاء يعقوب صروف بدأ القصيدة بالحديث عن الدنيا وخداعها وما تفعله بالأحرار ، وردّ على ما يقوله الناس :

يقولـون يـرثى كل خل وصاحب أجـــل إنما أقضى حقوق صحابى

جزيتهم دمعـــى فلما جرى المدى جعلت عيـون الشعر حسن ثوابى

* ثم خلص إلى رثاء يعقوب صروف بقوله :

دعوتـــك يايعقوب من منزل البلى ولـــولا المنـــايا مـا تركت جوابى

وذلك بعد خمسة عشر بيتاً من أبيات القصيدة .

* وفى رثاء ((حسين بك شيرين)) يبدأ القصيدة بقوله :

أرأيـت زيـن العـابدين مجهـــزا   نقلـــوه نقل الورد من محرابه [١]

* وكذلك فى كل قصائده ومنها قصيدته فـى رثـاء ((محمد عبده)) التى بدأها بقوله :

مفســر آى اللّـه بالأمـس بينـا   قــم اليوم فسر للورى آية الموت [٢]

ويلاحظ قصيدته ((شهيد الحق)) فـى ذكرى مصطفى كامل وقد بدأها بالأسـى من الفرقـة والتنـاحر السياسى والحزن الذى منيت به مصـر سنة ١٩٢٤م من البيت ١ إلى ٢٤ ثـم عرض لتصريح ٢٨ فبراير من البيت ٢٥ إلى ٢٧ [٣] .

ونلاحظ أن ذلك لا يحدث إلاَّ إذا كانت القصيدة فى ذكرى المرثى أو بعد مرور وقت . أمـا القصيـدة التـى قالهـا فـى رثـاء - مصطفى كامل.

* فقد بدأها شوقى بالرثاء مباشرة فقال :

المشــرقان عليــك ينتحبـــان   قاصيهمـــا فـــى مـأتم والدانى [٤]

وهنا نؤكد على أن شـوقى لايبدأ قصـائد الرثـاء بمقدمـات ، إلاَّ إذا كانت القصيدة بعد الموت بفترة طويلة ، وأن هذه المقدمة تـأتى ممهدة

---

(١) الديوان جـ٢ ص ٣٨٣ .
(٢) الديوان جـ٢ ص ٣٩٤ .
(٣) الديوان جـ٢ ص ٥٢٨.
(٤) الديوان جـ٢ ص ٥٧٤ .

للموضوع غير منفصلة عنه .

فإذا ما تركنا أحمد شوقى إلى صنوه حافظ إبراهيم وجدناه يبدأ قصيدة من قصائد الرثاء بمقدمة خمرية .

* صحيح أنه لا يتغزل فى الخمر ، وإنما يقول : أبعدوها عنى فليس اليوم هو يوم الراح ولايوم **الغيد** ، وإنما هو يوم همّ وتسهيد ، فبعد المرثى لم يعد هناك مجال للحظ الخالى من النكد . صحيح هذا ، ولكن ما الداعى أصلا لذكر الخمر والغيد ، وهما بعيدان أصلا عن حياة الشاعر ؟ ما السبب فى الزجّ بهما فى قصيدة الرثاء .

* يقول حافظ فى رثاء عثمان السيد أباظة :

ردَا كـؤو سكـما عن شبه مفؤود ... فليـس ذلـك يوم الراح والعود

ياساقيي أراني قـد سـكنت إلـى ... مـاء المـدامع عـن ماء العناقيد

وبـتّ يـرتاح سمـعي حين يفتقه ... صـوت النواوب لاصوت الأغاريد

فأمسكـا الـراح إني لا أخامرها ... وبلّغـا الغيـد عنى سلوة الغيد

ثـم امضـيا ودعـاني إنني رجل ... قـد آل أمـري إلـى همّ وتسهيد

* وبعد ذلك ينبئنا عن سر تركه الخمر ، وسلوته الغيد فيقول :

أبعد عثمان أبغـي مأربـاً حسنـا ... من الحياة وحظاً غير منكـود [١]

وهنا نلاحظ أن حافظا قد زجّ بالخمر والغيد الحسان كمقدمة

(١) ديوان حافظ ص ٤٤٥ .

لقصيدة الرثاء وإن كان من الواجب أن نسجل أن هذه هى القصيدة الوحيدة التى بدأت هذه البداية .

بالنسبة لقصيدة رثاء الآباء فى عصرنا الحديث - ولما كان المرثى وثيق الصلة بالراثى - فقد خلت القصيدة من المقدمات وإن تنوع مطلعها كما سنذكر .

❁ **مطلع قصيدة الرثاء :**

ونعنى بالمطلع بداية القصيدة أو مفتتحها وهو من الأهمية بمكان بالنسبة للقصيدة فهو كمايقول ابن رشيق ((داعية الانشراح ، ومطية النجاح)) (١) .

ويشير ابن طباطبا فى ((عيار الشعر)) إلى أنه ينبغى للشاعر أن يحترز فى أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به ، أو يستجفى من الكلام والمخاطبات ، كذكر البكاء ووصف إقفار الديار ، وتشتت الألاف ونعى الشباب وذم الزمان ، لاسيما فى القصائد التى تضمن المدائح أو التهانى وتستعمل هذه المعانى فى المراثى والخطوب الحادثة (٢) .

وقد تنوع مطلع قصيدة الرثاء ما بين دعاء بالسقيا ، وحكمة

---

(١) العمدة :جـ١ ص ٢١٧ . دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ م .

(٢) عيار الشعر : شرح وتحقيق عباس عبدالستار . دار الكتب العلمية بيروت ط سنة ٨٢ ص ١٢٦ .

وتفلسف ، ونداء للأب وتفجع عليه وذكر لمآثره . وقد يكون للقصيدة بعض الأسباب الخاصة فيبدأ المطلع بها :

* فمثلا حملت قصيدة اشاعر أحمد شوقى مطلعا خاصا بها وهو :

سألونـــى لـــم لـم أرث أبـى ورثـــاء الأب ديـن أى ديـن

أيهـــا اللـــوام مـا أظلمكـم أيـن لى العقـل الذى يسعد أين؟

* ثم عمد إلى الرثاء معزيا نفسه ، متأسيا بالسابقين :

يا أبـى مـا أنـت فـى ذا أول كـل نفـس للمنايـا فرض عين

هلكـت قبـلك ناس وقرى ونعـى النـاعون خـير الثقلـين

غايـة الـمرء وإن طال المدى آخـذ يأخـذه بالأصغـرين

وطبيـب يتـولى عـاجـزا نافضـا مـن طبـه خفـى حنين

إن للمـوت يـدا إن ضـربت أوشكـت تصـدع شمل الفرقدين

تنفـذ الجـو علـى عقبانه وتـلاقى الليـث بـين الجبلين

وتحـط الفـرخ مـن أيكتـه وتنـال البـغا فـى المئتين [1]

ثم يدلف بعد التأسي بالسابقين ، والحديث عن الموت ، وكيف أنه سيف على رقاب الجميع إلى الحديث عن والده وموته وفجيعته فيه .

وإذن فبداية القصيدة الحقيقية هى التأسى والعزاء ، وأما هذه الأبيات فى مطلع القصيدة فقد كانت ردا على استفسار الناس : لم

---

(١) ديوان أحمد شوقى جـ٢ ص ٣٨٣ .

سكت شوقى بعد موت أبيه ؟ وهواستفسار سنتعرض له فى الحديث عن العاطفة فى قصيدة الرثاء .

وبداية قصيدة أحمد شوقى بالتأسى ، وحديثه عن العقبان والليث والفرخ فى أيكته والببغاء ، تذكرنا بمطلع قصيدة عبد الله بن المعتز فى رثاء والده تلك التى بدأها بالتأسى فقال :

رب حتف يبين أثناء الأمل ... وحياة المرء ظل ينتقل
لو نجا شئ نجت ضارية ... تهجر السهل وتحتلّ القلل
كل يوم تخضب المنسر من ... علق تنهل منه وتعل
وإذا ما برق الفجر لها ... نفضت عن ريشها لؤلؤ طل
وحرىّ بنجاء لو نجا ... وعل بات على هضب مطل
يشرب الماء على متن صفا ... مسحته كف ريح فانصقل
مثل مرآة جلاها صيقل ... لوعلاها ولد الذر لزل (١)

إلى آخر صنوف التأسى والعزاء التى ساقها ابن المعتز .

ومن الشعراء من نراهم من بداية القصيدة وجها لوجه مع مصيبتهم وفجيعتهم وهم من هولها غير مصدقين ومن روعها رافضين .

وها هو الشاعر أحمد أحمد العجمى يبدأ قصيدته مناديا أباه رافضا أن يكون الموت قد حال بينه وبينه ، أو غيّر شيئا . فما زال يدعوه ،

(١) ديوان أشعار أمير أبى العباس ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ .

وهو مايزال مصغياً :

أبـي ياأبـــي لبيـــك حيّـا وفانيا فمـا زلـت تدعونى ومازلت صاغيا
وهيهات يطوى الموت ما كان بيننا وهيهـات ينسينى العطوف المواسيا
بكيت إلى أن كدت أعتنق البكـــا عقيــــدة محزون قضى العمر باكيا

* وهنا يستسلم للموت كواقع ، ويلجأ إلى البكاء عقيدة والتزاما :

وقد كنت لا آسى ولا أعرف الأسى فهـآنذا قاسيـت فيك المآســـيا
تعبّـدت بالآلام حتـــى كأنهـــا تسابيــح أواه رأى العيـــش فانيا

* ثم يتحدث عن حاله بعد الفجيعة :

ثكلـــت شبـــابى والعزاء كليهما وأصبحــت رسما للـجوى متداعيا
وصـــرت كتمثال الشجون بقفرة يعانى الريـــاح الـهوج غبراسوافيا

وقد يجسّد الشاعر فى مطلع القصيدة الإحساس بالفقد، لامن ناحيتـه هو فقط ، ولكـن الكـون كلـه يشـعر بهذا الفقد ويحسـه . ومـن هـؤلاء الشعراء الدكتور رجب البيومى عند ما بدأ قصيدته فى رثاء والده بقوله:

أبـــى أذّن الفجـــر فـــى الغيهب فكيـــف دعـــاك ولـــم تذهب
عهدتـــك تنهـــض قبـــل الأذان مشـــوقا إلـــى لحنـــه المطـــرب
تخـــف نشيـــط الخـــطى واثبا كأنـــك تـــرقى إلى كـــوكب
تضـــج الـــرعود فـــلا تنثنـــى وتمخـــر فـــى العارض الصيب
يســـاءل مسجـدك الآن عنـــك ويـــرنو بـــدهشة مستغـــرب

تعـــــود لقيـاك فـى اليوم خمسا فكيـــــف انتظـــرت ولـم تقرب

تحيـر محـــــــرابه ذاهـــــــــلا وحــــدّق فـى النـــاس كالمغضب

وبعد أن أوضح إحساس المحراب والمسجد والناس وشهر الصوم بفقد الوالد ، معددا من خلال ذلك سجاياه وصلاته وصيامه وعلمه وتقاه ، ألقى ببيت القصيد مبينا أثر الفيجعة عليه قائلاً :

تيتمـــت بعـــدك مهمـــا كبـــرت وأصبحـــت فـــى زمرة الشيب [1]

ومن الشعراء من بدأ قصيدته بالحديث عن سجايا والده وخصاله وأثره فيه ، ثم عرج بالحديث فى جانب آخر وهو أثر الموت عليه ، كما فعل على عبد العظيم عند ما قال :

لروحـــك يا أبـــى أهـــديت بحثـــا ثوابـــــك فيـــه أجـــزل من ثوابى

فأنـــت أبـــى وأستـــاذى وشيخى وخـــدن طفولتـــى وهـــدى شبابى

وحـــــادى رحلـــتى ودليل ركبى وقائـــد زورقـــى فـــوق العبــــاب

وبـــــدرى حـــين تسود الدياجى وشمســـى حـــين أخبـط فى الضباب

* ثم يقول بعد ذلك :

فمـالى بعـــدك اضطـــربت سفينى وأغطـــش منهـــجى وخبـــا شبابى

وكنـــت إذا أســـاء الـــدهر أحيـا بظلّـــك تحـــت أفيـــاء عــــذاب

ومن الشعراء من يبدأ مطلع القصيدة متفلسفا محلقا فوق الحدث

(١) ديوان حنين الليالى ص ١٧ .

* كما فعل الصيرفى عندما بدأ قصيدته بقوله :

طالــت بخطـوك الطــريق يأبى طالــت هنــا بخطـوك الطــريق
لاواحــة لاراحــة ولامــــدى ولاصـوى تهـدهـد البريـــق
ولا سميـــر فـــى المسير فى الهجير فــــى الطـريق لا ولا رفيـــق
ودعتهـــم جميعهم فى رحلة طويلة لعــالــــــم سحيـــــق
وظلـــت ترقــب المدى فى عزلة بصمتـــك المفلســف العميــق

* وكما فعل الأستاذ أحمد عبدالمجيد الغزالى عندما قال :

راحـــل أيا ضــلال هذا الوجود   هـــو بــاق فـــى خاطرى ونشيدى
ومــن الرحـــلة البعيـــدة لقيا   بيـــن روحـــين فوق دنيا القيود [١]

* وكما فعل الشاعر فليكس فارس عندما وقف على قبر والده بعد موت والده بشهور [٢] وخاطبه بهذه الأبيات :

أمستريح أنت يا والــــدى وراء هــذا الحجـــر البــارد؟
هل حط عن روحك وقر البقا فـــأدرج الزائـــل فـى الخالـد؟
أم أنت منا حالم تجتلى أشــــبـــاحنا فـــى هجعــة الراقد؟
أنـــاظر أنت وقـــوفى إلى مشعلـــك المنطفــىء الخامد؟ [٣]

---

(١) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥٠ .
(٢) توفى والده وهو غائب ، فقد كان كبير مترجمى بلديـة الأسكندرية ، وعـاد لتمضية إجازة الصيف ، فوقف على قبر والده وأنشد هذه القصيدة .
(٣) مجلة أبولو مارس سنة ١٩٣٣ ص ٨٠٩ .

ومن الشعراء والناثرين من بدأ بأثر الفجيعة علىنفسه مباشرة كما فعل زكى مبارك عندما نثر دموعه باكيا أباه ، فقال فى مطلع مرثيته : ((أبى : أتذكر كيف كنت أطوى عنك همومى وأحزانى ؟ أتذكر كيف كنت تسمينى الرجل الشجاع ؟ ألا فلتعلم أن موتك أثار دمعى ، وكنت رجلا لا تفجعه الحوادث ولا تهزه الخطوب)) .

((وما أحب أن أزكى نفسى بالبهتان ، فأنا إنسان أحزن كما يحزن الناس ، وأفرح كما يفرح الناس ، ولكنى كنت أطوى أشجانى رفقا بك ، وإشفاقا عليك ، اما الآن وأنت فى عالم البقاء فلم يبق ما يوجب الرفق بك ، ولا الإشفاق عليك . فانظر من عليين إلى ذلك الطفل الذى هزمته الفجيعة بك وأمضه الرزء فيك)) [1] .

ومن خلال هذه النماذج المتنوعة التى سقناها ، نرى اختلاف المطالع عند الشعراء وإن جاز أن نجد سببا لهذا ، أو تعليلا فإننا نقول إن القصائد التى راحت تحلّق حول الحدث فى مفتتحها ، قد أنشدها قائلها بعد الحدث ، بعد الهدوء ، بعد أن مرت الفيجعة فإذا ألقى الشاعر قصيدته بعد مرور فترة على الحدث وجدناه ينظر إلى الحدث متفلسفا أو متأسيا ، كما فعل أحمد شوقى ، وفليكس فارس ، وإذا ألقى الشاعر قصيدته فى وقت فجيعته ، رأينا مطلع القصيدة وقد انعكست عليه آثار تلك الفجيعة ، رأينا ذلك عند زكى مبارك ، ورجب البيومى،

(١) البدائع جـ٢ ص٥٧ .

وأحمد العجمى .

❁ **خاتمة القصيدة :**

هى نهاية القصيدة ، وختام عاطفة الشاعر ، إذا لا يصل إليها إلاّ وقد أتى على مافى نفسه ، يريد أن يركز فيها عاطفته ، وأن يقول كلمته وهى كما يقول ابن رشيق : ((أبقى فى السمع وألصق فى النفس لقرب العهد بها فإن حسنت حسن وإن قبحت قبح)) (١) .

وواضح من كلام ابن رشيق أنه يقصد خاتمة القصيدة فى كل الأغراض وخاصة تلك الأغراض التى يهم الشاعر أن تبقى فى ذهن السامع . وهو هدف لا يهتم به ، أو لا يقصد إليه من يبكى أباه . فالسامع ليس فى ذهنه ، وإنما هدفه إفراغ شحنة الحزن التى تعتمل فى داخله وقت فجيعته ، وهذا هو جُل اهتمام الشاعر .

وإذا كان الحذاق من الشعراء قد كرهوا ختم القصيدة بالدعاء – كما يقول ابن رشيق – لأنه من عمل أهل الضعف (٢) ، فإن الموقف هنا يحتاج إلى هذا الضعف فهو دعاء إلى اللّه لرحمة هذا الميت .

وقد تنوعت خاتمة القصيدة . وباستعراض خاتمة قصيدة رثاء الآباء نجد كثيرا من الشعراء قد اختتم قصيدته بالدعاء والرحمة

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر ونقده جـ١ ص ٢١٧ دار الجيل ط الرابعة / ١٩٧٢ م .
(٢) العمدة فى محاسن الشعرونقده جـ١ ص ٢٣٩ .

والسلام .

* وهذا هو الشاعر أحمد محرم يختتم قصيدته بالصلاة والدعاء لمن فقدهم جميعهم من بنيه وإخوته وأبيه وأمه :

عليكم من صلاة اللّه روح وريحان وبرّ واحتفاء

* وكذلك فعل الشاعر على عبد العظيم عندما ختم قصيدته بالدعاء لوالده فقال :

أبي نم في جوار اللّه وانعم بما قدمت من حسن الثواب
تبادلك الملائكة التحايا وتجهر بالثناء المستطاب
وحسبك ما تركت من البواقي وما استقبلت من حسن المآب [1]

* وكذلك الشاعر أحمد أحمد العجمي - يختم قصيدته بقوله :

ولولا عزاء الأصدقاء وشعرهم شفاء لقلبي غص بالعيش قاليا
عليك سلام اللّه في الجنة التي أراك بها تحيا وتخلد هانيا [2]

* وكذلك الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالي :

وعد المتقون جنة عدن فتمتع بظلها الممدود [3]

وربما ختم الشاعر قصيدته بالدعاء ولكنه ليس دعاء للميت بل هو

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون : تحقيق /على عبد العظيم ص ١ .
(٢) مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .
(٣) الرسالة العدد ٦٦١ ص ٢٥ .

دعاء بانتهاء هذه الحياة الخادعة البريق ، زائفة المظهر ، لأن نهاية الحياة فيها لقاء الأحبة الذين فقدوا ، وهكذا يختم الشاعر حسن كامل الصيرفى قصيدته بقوله :

أرجـــو نهـــاية الخطى إلى المدى   أرجـــــو انطفـــاء ذلك البريق
ليلتــقى عــلى وســائد الثـــرى   هنـــا المشـــوق بعـد بالـمشوق

ونرى خاتمة أخرى عند الشاعر أحمد شوقى ، فهو يتحدث عن أثر الفقد بعد موت أبيه فهو لم يعد يخاف من شئ ، فقد جمدت عينه ، بعد أن تعلم بفقد أبيه أن كل شيىء نهايته الموت لاقيمة له ، متسائلا عن هذا الفراق أيكون بعده لقاء أم لا ؟

لاتـــخف بعـــــدك حزن أو بكا   جمـــدت منـى ومنـك اليـوم عين
أنـــت قـــد علمتـنى ترك الأسى   كـل زيـــن منتهـــاه اليوم شين
ليــت شعـرى هـل لنـــا أن نلتقى   مـــرة أم ذا افتـــراق الملـــوين؟
وإذا مـــت وأودعـــت الثـرى   أنلـــــقّى حفـــرة أم حفرتين؟ [1]

ونلمح خاتمة مغايرة عند الشاعر فليكس فارس ، وقد طالت وقفته المتفلسفة الهادئة علىقبر أبيه ، وزهد فى الدهر بعدما تبين له أن الدنيا وهم ، فما ينال الدهر من زاهد ؟

أجثـو عـلـــى قبـــرك لا أشتكى   مـــــرارة المستـوحش الفـاقد
أسجـــد منضمـــا لنفســى وهـل   يخلـــق دمـــع الشـوق بالساجد

---

(١) ديوان أحمد شوقى : جـ٢ ص ٣٨٤ .

مــــا بــاد مــن ذاتــك إلاَّ الضنى   وهــل ســوى الطــارىء من بائد
أشباحـــــنا أمــــواج هــذا البقــا   صادرهـــــا فـــــى اليمّ كالوارد
عــــرفت أن الـــدهر وهـــم فما   ينــــال هـــذا الـدهر من زاهد (٢)

ويعطينا الشاعر الدكتور رجب البيومى ، إحساسا أحسـه فـى نهايـة وقفته على القبر ، هذا الاحساس مزيج من الدعاء والترجى والأمل فى اللّـه ، فقد أحس أن والده فى الجنان مـع النبييـن والصديقيـن والشـهداء وقد سعد لذلك وقرأ له فاتحة الكتاب وردد هنيئا له بهذا الحلم الصـادق لدى اللّـه سبحانه وتعالى ولو انه ران عليه الأسى لفقد والده :

وقفـــت سعيـــد المنـــى راضيا   كأنـــى لـــدى القبـر فـى يثـرب
وتمتمـــــت أقــــرأ أم الكتــاب   بريــــــداً يطيـــر ولـــم يكتب
وعـــــدت أقـــول هنيـــئا لــه   بحلـــــم لـــدى اللّـه لـم يكذب
ولكـــــن عـــرانى الأسى حينما   تذكـــــرت أنـــى فقدت أبى (٢)

وأما زكى مبارك فقد ختم مرثيته النثريـة بمخاطبـة والـده أن موتـه نفع له كما أن حياته نفع لـه . لقد كـانت خطـوب الزمـان تؤذيـه لأنـها تؤذى والده . أما الآن وقد تنزه قلب الوالد عن أحزان الحياة ، فلـم يعد يهتم بتلك الأحزان فلتفعل الأيام ما تشاء (٢) .

---

(١) مجلة أبولومارس سنة ١٩٣٣ ص ٨٠٨ .
(٢) ديوان حنين الليالى ص ١٨ .
(٣) البدائع جـ٢ ص ٥٧.

ومن هنا نرى خاتمة القصيدة وقد تنوعت وجاء هذا التنوع طبقا لنفسيه الشاعر وقت إنشاده ، وقرب الحدث أو بعده .

❁ الأوزان :

وهل لقصيدة الرثاء أوزان مخصوصة ، أو بحور معينة ؟ وهل تختلف الأوزان باختلاف المعانى والأفكار والموضوعات ؟ وهل يختار الشاعر بحرا يتوافق مع موضوعه وعاطفته ؟

كل هذه الاستفسارات تطرح نفسها عندما نضع عنوانا كهذا .

والذى لايشك فيه أحد أن الوزن هو جوهر الشعر وأساسه فهو أعظم أركان الشعر وأولاها خصوصية (١) .

وقديما أدرك ابن العميد هذه الصلة بين المعنى والوزن اشعرى فمن المعانى ما هو جاد أو حار أو جياش أو صاخب ، فلا يؤدّى إلاَّ بنفس طويل ، ولا يلائمه الإ الأعاريض الطويلة ، ومنها ما هو دقيق أو هادىء أو ما جن أوراقص ، فيجب أن يصاغ فى تفاعيل تناسبه .

ولأمر ماقالوا إن الرثاء يحسن جداً فى بحر الطويل . ولأمر ماشاعت الأوزان القصيرة عند المحدثين ويعلق المرحوم الاستاذ طه أحمد إبراهيم على فكرة ابن العميد بقوله : ((ولست أدرى أهذه الفكرة

---

(١) العمدة جـ١ ص ١٣٤ .

من عند ابن العميد أم لها نواة وأصل من عهد الخليل بن أحمد)) [١] .

وقد شغلت قضية ارتباط المعنى بالوزن المحدثين ، ومن الذين ناقشوها وطرحوها على بساط البحث الدكتور إبراهيم أنيس عندما قال : هل كان الشاعر القديم يتخير لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته ؟ وهل جاءت هذه الأوزان المختلفة تبعا لاختلاف الشعور عند الناظمين القدماء؟ وهل اتخذ القدماء لكل موضوع من الموضوعات وزنا خاصا أو بحرا خاصا من بحور الشعر ؟

إن استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخير أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه ، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون فى كل بحور الشعر التى شاعت عندهم .

ويكفى أن نذكر المعلقات التى قيلت فى موضوع واحد تقريبا ، ونذكر أنها نظمت من الطويل والبسيط والسريع والخفيف . وقد يكون من المغالاة أن نتصور اشتراك الشعراء فى العاطفة لمجرد اشتراكهم فى موضوع الشعر ، فالحالة النفسية للخنساء حين كانت ترثى أخاها غير الحالة النفسية التى تملكت أصحاب المراثى من القدماء .

شعور الشاعر إذن ، وإن توقف إلى حد ما على موضوع الشعر ، يختلف باختلاف الشعراء ، واختلاف تأثرهم بعوامل أخرى لا يمكن

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٤٨ دار الحكمة بيروت .

حصرها : على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر ان الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه جزعه وحزنه .

فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسى ، وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس ، وازدياد النبضات القلبية ومثل هذا الرثاء الذى ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة إلاَّ فى صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها على عشرة . أما تلك المراثى الطويلة ، فأغلب الظن أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفزع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر [(١)] . وكلام الدكتور إبراهيم أنيس فى بدايته يفهم أن البحر لا علاقة له بالمعنى بدليل المعلقات التى قيلت فى موضوع واحد تقريبا كما ذكرنا - مع اختلاف البحر .

وقد كان القدماء يفاخرون ويمدحدون ويتغزلون ويرثون فى كل بحور الشعر التى شاعت عندهم .

على أن عجز كلامه يفهم غير هذا ويناقضه وذلك حين يقول : على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن تقرر أن الشاعر فى حالة اليأس والجزع يتخير وزنا طويلا كثيرا المقاطع . ولعله خفف من حدة هذا التناقض أنه فرق بين إنشاد الشاعر وقت المصيبة وإنشاده بعدها .

(١) موسيقى الشعر : د ابراهيم أنيس ص ١٧٨ الطبعة الخامسة .

ومعنى ذلك أن المعول عليه فى الوزن ، ليس الموضوع من رثاء أو غيره ، ولكن المعول عليه هو عاطفة الشاعر وقت الإنشاد .

ولعله ارتاح إلى هذا الرأى فقال بعد كلامه ((ويحسن بعد كل هذا ألا نفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر فى تخير وزن من الأوزان تحت تأثير عاطفة خاصة . وعلى ناقد الأدب أن يبحث هذا بحثا خاصا مستقلا فى كل قصيدة ليرى من معانيها وموضوعاتها ماإذا كان الشاعر قد وفق فى تخير الوزن أو لم يحسن الاختيار)) (١) .

وممن قال بالعلاقة بين المعنى والنظم الأستاذ طه أحمد إبراهيم عندما قال : ((فمن الأفكار ما هو جاد طويل النفس ، له جلال ورهبة ومثل هذه توضع فى بحر له تفاعيل عدة تقبل ما يصب فيها من المعانى . فالرثاء والنظرات فى الكون وأشعار الشكوى والتألم أحسن ما تكون فىبحر الطويل)) (٢) .

وممن أدرك هذه الصلة أيضاً د/ العربى درويش عند دراسته للشاعر زكى مبارك فقال : وقد لاحظت أن زكى مبارك يتخير واحداً من الأوزان الطويلة كثير المقاطع يصيب فيه ما ينفس عنه حزنه وجزعه . كما استخدم ((بحر البسيط)) فى الرثاء عادة حيث يسعفه بنغم حزين

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى ص ١٣٥ .

مستطيل (١) ثم عاد فنقض هذا الكلام مرة أخرى عندما قال :

وكل هذا جعل الباحثين – القدامى منهم والمحدثين – يعقدون الصلة بين عاطفة الشاعر وما تخيره من أوزان لشعره . على أنني – بعد كل هذا – أقول إنه قد يكون من المغالاة أن نتصور اشتراك الشعراء جميعاً في العاطفة لمجرد اشتراكهم في موضوع الشعر : –

الشعر يختلف باختلاف الشعراء واختلاف تأثرهم بعوامل أخرى لا يمكن حصرها (٢) . وإذن فالمعول عليه ليس هو الموضوع وإنما عاطفة الشاعر تجاه هذا الموضوع ، والتي تختلف من شاعر لآخر ولهذا وصل إلى قوله : ويحسن بعد كل هذا ألا نفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر في تخير وزن من الأوزان تحت تأثير عاطفة خاصة ، وإنما على الدارس أن يبحث هذا بحثا مستقلا في كل قصيدة ليستنبط من معانيها وموضوعها ، العلاقة بين الحالة النفسية للشاعر وبين الوزن الذى اختاره لتجربته الشعرية (٣) .

وهذه النتيجة التى وصل إليها الدكتور العربى هى نفسها التىوصل إليها الدكتور إبراهيم أنيس بضرورة دراسة كل قصيدة على حدة .

وقد توصل صاحب كتاب ((رثاء الأبناء فى الشعر العربى)) إلى

---

(١) زكى مبارك شاعرا : العربى حسن درويش ص ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

(٣) زكى مبارك شاعراً . د/ العربى حسن درويش ، ص ٢٤٢ .

أن فكرة الربط بين الموضوع وبحر معين فكرة خاطئة وذلك عندما قال : لقد قام الباحث بدراسة إحصائية على جميع النصوص التى بين يديه وعلى مدى مختلف العصور وجاءت نتيجتها لتنقض الفكرة من أساسها ، ويلاحظ من خلال الإحصائية أن شعراء رثاء الأبناء نظموا قصائدهم على مختلف البحور الشعرية مع اختلاف النسب فى ذلك.... كذلك فقد أشارت النتائج إلى عكس ما يقوله الدكتور إبراهيم أنيس من أن الشعر وقت المصيبة والهلع يتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النَفَس ، وازدياد النبضات القلبية . ومثل هذا الرثاء الذى قد ينظم ساعة الهلع والفزع لا يكون عادة إلاَّ فىصورة مقطوعة قصيرة ولكن النصوص تقول غير ذلك [١] .

فإذا ما عدنا إلى استقراء قصائد رثاء الآباء ، وجدنا الشعراء قد صاغوا قصائدهم فى بحور مختلفة ذات تفعيلة واحدة أوذات تفعيلات مختلفة . فعبد الله بن المعتز قد ساق قصيدته واختار لها بحر الرمل ، وجاءت القافية مقيدة ، وقد اختار الشاعر أحمد شوقى البحر نفسه لبكاء أبيه فجاءت القصيدة من بحر الرمل وجاءت مقيدة .

ومن الشعراء الذين اختاروا بحر الهزج الشاعر على عبدالعظيم وأحمد محرم وامرؤ القيس . ومن الذين اختاروا بحر الرجز ، الشريف الرضى والصيرفى ، وفليكس فارس . واختار الشاعر أحمد

(١) رثاء الأبناء فى الشعر العربى ص ١٨٨ .

عبد المجيد الغزالى بحر الخفيف ، واختار أحمد أحمد العجمى بحر الطويل ، واختار الشاعر الدكتور رجب البيومى بحر المتقارب .
وهكذا نرى تنوع الاختيار بالنسبة للموضوع الواحد ما بين بحور مختلفة ومتنوعة . وهو ما يجعلنا نميل إلى الرأى القائل بدراسة كل قصيدة على حدة لدراسة مدى توفيق الشاعر فى بحره الموائم لعاطفته .

الخيال :

عنصر من عناصر الأدب ، وهو الكوّة التى نستطيع من خلالها تصوير الأشخاص والمعانى وتمثيلها شاخصة أمام من نخاطبه ونستثير مشاعره (١) .

وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين عليها ، وإذا كانت العواطف مسرفة مبالغة ، ذهب الخيال كل مذهب وكان وهما .

وهذه العاطفة القوية الصادقة فى قصيدة رثاء الآباء ، حملت لنا خيالا خصبا قويا ، صور فيه الشعراء أحاسيسهم تجاه الموت وتجاه الفقد وغير ذلك .

وقد انقسمت قصيدة الرثاء ما بين وصف للمرثى فى حياته ، وما بين الموت وشدته ، وما بين أثر فقد الآباء على الشاعر ، وجاء ذلك

(١) النقد الأدبى : أحمد أمين ص ٢٧ الطبعة الرابعة مكتبة النهضة .

يصور شتى .

- **صفات المرثي :**

ففي تناول صفات المرثي يصف الأمير عبد اللّه الفيصل والده بقوله :

يامهنداً مأحب الغمد يوما ، ياحساماً ، وهو هنا يلجأ إلى التشبيه .

وكذلك الشاعر علي عبدالعظيم عندما يصور حياة والده : فهو حادي رحلته ((حادي رحلتي)) ((دليل ركبي)) ((قائد زورقي)) ((بدري)) ((شمسي)) والصورة هنا ((لا تبعد عن التشبيه)) فقد شبه حياته بقافلة في رحلة مضنية تحتاج إلى الحادي الذي يستحث الإبل على السعي وينشطها . والدليل في هذه الرحلة التي تحتاج إليه حتى لاتضل في الصحراء ، وهو يمخر عباب البحر في زورق يحتاج إلى قائد ، ووالده هو هذا القائد ، وهو بدره الذي ينير له في ظلمات الليل ، وهو شمسه التي تمده بالنور والضياء وغير ذلك .

* ويلجأ أيضا إلى المجاز وهو يصور والده عندما يقول :

وكنت إذا أساء الدهر أحيا بظلك تحت أفياء عذاب
إذا ما اليأس أغلق كل باب فتحت إلى التفاؤل ألف باب

* ويلجأ إلى الاستعارة أحيانا عندما يقول :

وكم أرهفت في الأزمات عزمي وكم سددت في الجلى حرابي

وكـــم قـــربت لى شمـــس الأماني وكـــم ذللـــت لى شـــم الرقاب
وكم سددتنـــــى نحـــــو المـــعالى وكـــم علمتنـــى خـــوض الصعاب
وكـــم حـــلقت بى فبلغت شأوا يفـــوق مـــداه أجـــواز السحـــاب

* ويلجـأ إلـى التشـبيه فيصـف أخـلاق والـده بالريـاض المنـورة المضخمة بالعبير :

خلائـــق كالريـــاض منـــورات يضـــوع عبيـــرها مثـــل الملاب

* وقد يلجأ الشـاعر فـى تصويـر خلائـق والـده وصفاتـه إلـى المحسنات مثلما فعل الشاعر أحمد العجمى فقال :

لقد كنت تسقينى وإن كنت صاديا وكنت تـواسينى وإن كنت شاكيا
وما زلـت تحبـــونى تقـى ومروءة وزهـــدا يرينى عاطل العيش حاليا
وقد كنت تنهانى عن الشعـر داعيا إلى الديـن تهدينى وإن كنت هاديا

ويلجأ إلى التشبيه فيقول : سجايا كـأن الأنبيـاء بطهرهـم ، تواصـوا بها واستخلفوك تواصيا .

وكذلك يستخدم الدكتور رجب البيومى التشبيه وهو يصف والده فى حياته بقوله :

تخف نشيط الخطى ، كأنك ترقى إلى كوكـب ، تعمد للسـهل كـأنك ترشف . ويستخدم المجاز فى قوله تضج الرعـود ، يسـاءل مسجدك ، يرنو بدهشة مستغرب ، تعود لقياك ، تحير محرابه . حدقّ فى الناس ، يحتضنك تضم الصفوف .

ويشبه أحمد شوقى علاقته بأبيه في حياته بأنها كانت كالأخ مع أخيه وذلك حينما يقول :

((ما أبى إلاَّ أخ فارقته)) .

❁ تصوير المرض والموت :

عنصر آخر مهم في قصيدة رثاء الآباء وهو تصوير المرض والموت . وقد ساق الشعراء أغلب صورهم معتمدين على الاستعارة فالشاعر أحمد محرم يعبّر عن ذلك بقوله : ((رمتك يد المنايا)) ويعبر الشاعر أحمد شوقى بقوله :

إن للمــــوت يــــدا إن ضــربت أو شكـــت تصدع شمل الفرقدين
تنفـــذ الجـــو علــــى عقبــانه وتلاقــى الليــث بيــن الجبلــــين
وتحـــط الفــرخ مــن أيكتــــه وتنــال الببغـــا فـــى المئتيـــن

* وقد يلجأ الشعراء في تصوير الموت إلى التشبيه كما قال أحمد شوقى :

يأبـــى والـــموت كـــأس مـــرة لاتـــذوق النفـــس منهـــا مـــرتين

* ويصور الشاعر أحمد العجمى الموت في صورة خبيثة فيقول :

سعى الموت فى خبث إليك وخسة كما تفعل الأفعى– وقيت الأفاعيا–
بليـل مــن الأحزان طالت همومه شهـــورا حسبــــناها سنــين ثمانيا
تعانـــى أليـــم الـــداء لاداء مثله ســـوى ما بقلبى جازعا لك داعيا

وهو فى هذه الصورة يعتمد على الاستعارة مشبها الموت بحية رقطاء سعت إليه فى خبث وخسة ، بليل حزين طويل الهم ، ويعتمد على التشبيه مصورا ألم الداء وشدته فهو لا تشبهه شدة سوى ما أصاب الشاعر من تصدع وألم .

❁ أثر فقد الآباء :

ويوضح الشعراء أثر الفقد فى نفوسهم فيسلكون فى تصوير ذلك ضروبا شتى . فالشاعر الأمير عبد اللّه الفيصل يصور هذا الفقد بقوله : ((نازفات جراحى)) ((أبلى عزمى)) ((فل سلاحى)) ((أرانى دجن المسا فى صباحى)) ((أسلمت مهجتى للنواح)) ((اختلاج الضياء فى مصباحى)) ماتت بعده أفراحى)) وهو فى كل هذا يتكأ على الاستعارة . وكذلك صور الشاعر على عبدالعظيم فقد والده بقوله ((اضطربت سفينى)) ((أغطش منهجى)) ((خباشهابى)) ((لذت معتصما بصبرى)) وربما لجأ إلى التشبيه فقال ((تدفق مدمعى مثل الرباب)) .

وقد اتكأ الدكتور رجب البيومى أيضا على الاستعارة عندما قال : ((شعور الطفولة يحتلنى)) ((أصيب كيانى بصدع لم يرأب)) وربما لجأ إلى التشبيه أيضا عندما قال ((تلاشيت مثل الهباء)) .

وقد استعان الشاعر أحمد أحمد العجمى بالاستعارة والتشبيه والمحسنات وهو يتحدث عن أثر فقد والده عليه فقال : ((كدت اعتنق

البكا)) ((تعبّدت بالآلام)) ((أصبحت رسما للجوى)) ((ثكلت شبابى)) ، والدمع يكوى مقلتى ، ويلجأ إلى التشبيه أحيانا وذلك مثل قوله : كأنها تسابيح أوّاه ، صرت كتمثال الشجون ((كأن بقلبى مأتما)) ويلجأ إلى المحسنات أحيانا فيقول : ((وصاحت مناياه وكانت أمانيا)) وقوله:

هجرت الورى حتى الحبيب المصافيا وعم الأســى حتى الحقود المداجيا

ومن خلال تناول الشعراء نرى أن الاستعاره تشغل حيزا كبيرا فى تصويرهم ، وأن التشبيه يأتى بقلة ، ويندر من استخدم المحسن البديعى مثلما فعل الشاعر أحمد أحمد العجمى .

العاطفة :

لقد كان الدافع إلىكتابه هذا البحث ، رصد عاطفة الشاعر تجاه أبيه بعد الوفاة وهل هى معادلة لعاطفة الأب تجاه ابنه أو تقل قليلا ، أو تختلف تماما .

والذى لاشك فيه أن عاطفة الحزن هى عنصر مشترك فى هذه الحالة .

ولكن المعول عليه هو شدة الحزن أو قلته ، ومن ناحية أخرى نجد عواطف أخرى تتداخل فى رثاء الآباء كعاطفة الفخر ، وتداخل الفخر مع الرثاء لا يعد تشتتا للعاطفة لأن وصف الآباء ومدحهم فى حياتهم فيه عاطفة الافتخار ، فهى متداخلة بصورة ما مع المدح والرثاء

والعاطفة الدينية بما تعكسه من التصبر والعزاء .

هى نوع من أنواع التعدد العاطفى فى قصيدة رثاء الآباء ، ويقابل بها عاطفة السخط والجزع أو الشك والارتياب . وقد نجد الشاعر وقد ارتفع فوق الحدث وراح ينظر من عل متفلسفا ، وقد يصنع الشاعر كل ذلك فى قصيدة واحدة وقد تغلف عاطفة الحزن وحدها القصيدة من أولها إلى آخرها .

فقصيدة مثل قصيدة الشاعر أحمد أحمد العجمى قد لفها الحزن من أولها إلى أخرها رافضا فيها أن يطوى الموت ما كان بينه وبين والده ، وهو قد اعتنق البكاء مذهبا له ، وتعبد بالآلام وثكل شبابه وصار رمزا للشجون والأحزان بقفرة " كأن بقلبى مأتما " .

وحتى عندما يتحدث عن حياة أبيه وصفاته ، يذكر ما كان يمثله أبوه بالنسبة له " لقد كنت تاجى وهامتى " لقد كنت تسقينى ، وكنت ترعانى وتأسو جراحى . فالقصيدة من أول بيت إلى أَخره ، تغلفها الحزن فى نغمة صاعدة لا تهدأ إلاَّ فى البيت قبل الأخير الذى يلجأ فيه إلى العزاء أو التصبر قائلا : ((ولولا عزاء الأصدقاء وشعرهم ، شفاء لقلبى غصّ بالعيش قاليا)) .

فهذا نموذج للقصيدة التى لفتها عاطفة الحزن والتفجع من أول بيت إلى آخره .

وقريب من هذه القصيدة في عاطفتها قصيدة أخرى للشاعر الدكتور محمد رجب البيومى فى رثاء والده ، فعاطفة الحزن موجودة فى القصيدة من أولها إلى آخرها وإن غلفت هذه العاطفة بالتعقل والهدوء النفسى فهو يخطط للقصيدة من أولها إلى آخرها مصورا آذان الفجر وهو يرفع فى آفاق السماء ، ومع ذلك لايرى المشهد اليومى الذى يتكرر ووالده ينهض ملبيا هذا النداء يخف نشيط الخطى ، لا يثنيه صخب الرعود ولا هطول المطر ، يمخر عباب هذا الوابل الصيب . تعجب من توقف هذا المشهد اليومى وليس هو وحده المتعجب ، وإنما المحراب الذى تعود على ضمه الصفوف وترتيله المعجب ، لقد غادر فى شهر الصوم ، وهذا الشهر كان مجال العطاء من والد الشاعر دروسا وزكاة وشرحا لآى الكتاب .

وبعد هذا الحديث المتواصل المتدفق المشع بالحرارة ، المتوهج بالعاطفة يلقى الشاعر ببيت القصيد كما يقولون ، وكما اختاره هو عنوانا لقصيدته إنه لا يلقى بجملة خبرية تقريرية ، ولكنه يفرغ ما اختزن فى داخله طوال القصيدة وأراد أن يحبسه فما استطاع ، إحساس أليم بالفقد تجسد فى هذا البيت :

تيتمت بعدك مهما كبرت وأصبحت فى زمرة الشيب

لقد ارتدت مشاعر الطفولة والخوف من المجهول إلى أعماق الشاعر ، فقد كان الوالد سنده فى الحياة ، وأن اللّه سيحفظه بتقوى

والده ، فلما مضى هذا الأب أصيب بصدع .

وهنا تتدخل العاطفة الإيمانية لتهدهد من هذا الحزن الجارف ، لقد وقف على قبر والده وقد سيطرت عليه السكينة فلم يذر دمعا ولم يندب ، وقد رأى أن والده بكل ما قدّم ، مكانه ليس فى هذه الحفرة ، وإنما هناك فى عليين مع النبين والصديقين والشهداء فراح يتمتم بقراءة الفاتحة وإن اعتراه الأسى لفقد هذا الأب .

ففى هذه القصيدة نلاحظ عاطفة الحزن مع العاطفة الإيمانية ونلاحظ التمازج بينهما والتلاحم الذى يزرى بالرأى القائل بتشتت العاطفة وتوزعها .

وقد جاءت قصيدة الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى وفيها هذه العاطفة مع ما شابها من نظرات فلسفية بدأ بها القصيدة فقال :

راحل ، أيا ضلال هذا الوجود   هو باق فى خاطرى ونشيدى

ويواصل الضرب على هذا الوتر مستفسرا عن هذه الرحلة الطويلة القصيرة ، القريبة البعيدة ، الواضحة الغامضة ، ثم يغمره الحزن وقد تذكر طفله الصغير الذى يناغيه الجد ويغنيه ، وقد أفرد الطفل يتيما حزينا بائسا .

* وقد صور ذلك فقال :

هف نفسى وقد ضممت وليدى   قائلا ذاك طارفى وتليدى

واثبا حوله تناغيه فرحان ... فيهتز هزة الأملود
وتغنيه فى ضجيج وشدو ... ناسيا عنده وقار الجدود
من له بعد رحلة لك طالت ... فيناديه صائحا يا حفيدى
لكأنى به يسألنى الآ ... ن وتلك الدموع سؤال الوليد
حين يلقى بنظرة لى حيوى ... ويحيل العينين بين الشهود
دافق الدمع فى صراخ كئيب ... ذقت منه مرارة التسهيد
يرسل النظرة الأسيفة وهى ... تتندى فى طرفه المكدود
موحش شاقه حنو عطوف ... ما جفاه فى يقظة وهجود

* وبعد هذا التصوير الحزين لفقد هذا الأب ، تغمره العاطفة الإيمانية فيقول معزيا نفسه :

جلّ فيك العزاء ياوالدى البر ... وآه من يومك المشهود
شئت أن تلتقى لربك فى الفجر ... مع النور هاديا فى الصعود
سمة المؤمنين يسعى سناهم ... بين أيديهم بدار الخلود
وعد المتقون جنة عدن ... فتمتع بظلها الممدود

وإذا كانت عاطفة الحزن قد غمرت هذه القصائد السابقة ، فإن قصائد أخرى قالها أصحابها بعد موت الوالد بفترة بعيدة فجاءت رنة الحزن فيها خافتة . ومنها قصيدة أحمد شوقى فى والده فقد رثاه بعد فترة من الزمن ، وبعد أنه لامه الناس لأنه لم يرث أباه . وردّ عليهم فى بداية قصيدته :

سألونـي لـم لـم أرث أبـي؟ ورثـاء الأب ديـن أى ديـن
أيهـا اللـوام مـا أظلمكـم أيـن لى العقـل الذى يسعد أين؟

وهو سؤال حاول الإجابة عنه كثيرون ، وقد رده الدكتور مصطفى سويف في حديثه عن خطوات الإبداع - إلى اختلال الاتزان الذى يصيب الشاعر ودرجة هذا الاختلال ((يندفع فى نشاط يهدف إلى خفض التوتر وإعادة الاتزان ، ويكون هذا النشاط منظما بفعل الإطار فتكون النتيجة قصيدة)) .

ومن المحقق أن اختلال الاتزان يختلف باختلاف التجارب التى يلقاها الفنان بحيث يمكن أن نتحدث عن اختلال سطحى واختلال عميق ، واختلال بالغ واختلال ضئيل . ويبدو أثر ذلك فى صعوبة عودة الاتزان إلى الأنا وتأخر هذه الصورة فترة طويلة أحيانا وعلى هذا الأساس نستطيع أن نعلل كون فيكتور هيجو لم يستطع أن يبدع من معين وفاة ابنه إلاَّ بعد مرور عام على هذه الوفاة . وكيف أن الحادث الذى أصاب مردم بك اقتضاه زمنا غير يسير حتى استطاعت آثاره أن تقترب من الانتظام)) [1] .

معنى ذلك أن التوتر إذا كان شديداً والمصيبة شاملة ألْجمت الشاعر ومنعته من الكلام . وهو كلام صحيح إلىحد ما .

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى د . مصطفى سويف ص ٢٨٩ الطبعة الثالثة دار المعارف .

* ولنقرأ أبيات حافظ على قبر صاحبه وصديقه محمد المويلى ، ثلاثة أبيات متهافتة متساقطة لاتكاد تقوى على النهوض

لهفى على تلك الأنامل فى البلى　　　كم سطرت حكما وهزت مرهفا
مات الموحلى الحسان ولم يمت　　　حتى غزا ((عيسى)) العقول وثقفا

لو قرأنا هذه الأبيات التى قالها وهو يسير خلف نعشه فى ١٨ أبريل سنة ١٩٣٠م وقرأنا بعدها القصيدة التى قالها فى حفل التأبين الذى أقيم فى مسرح حديقة الأزبكية فى ١٣ يونيه سنة ١٩٣٠م أى بعد حوالى شهرين والتى يقول فيها :

دمعة من دموع عهد الشباب　　　كنت خبأتها ليوم المصاب
لبّت اليوم يامحمد لما　　　راعنى نعى أكتب الكتاب
هدأت لوعتى وسرت قليلا　　　عن فؤادى ولطفت بعض مابى [١]

لو قرأنا ذلك لثبت لنا استواء التجربة فى القصيدة الثانية وتسرعها وتهافتها فى الأبيات الأولى .

وهو كلام صحيح إلى حد ما ، وأقول إلى حد ما ، لأن الشاعر محتاج إلى هذا التوتر ، لتخرج القصيدة منصهرة فى حرارة هذا التوتر ونتيجة عنه ، لأننا لاحظنا أن القصائد عندما تبعد عن الحدث ، تختفى عاطفة الحزن ، ويحل محلها أو تطغى عليها عناصر أخرى

---

(١) ديوان حافظ ص ٥٥٢ .

فيها التأسى والعزاء وفيها الفلسفة والحكمة .

ومن هذه القصائد قصيدة الشاعر أحمد شوقى تلك التى بدأها بالتأسى :

يأبــــى ما أنـــــت فــــىذا أول ... كـــل نفــس للمـــنايا فرض عين

هلكـــت قبـــلك نـــاس وقرى ... ونعى النـــاعون خـــير الثقلـــين

* وهذه القصيدة يغلب عليها عنصر التأسى والتصبر ، ويغلب عليها محاولة التفلسف :

انظر الكون وقل فىوصفـــــــــه ... كـــل هـــــذا أصــــله مـن أبوين

فـــإذا قيــــل مـــا أصلهمــــا؟ ... قـــل همـــا الـــرحمة فـــى مرحمتين

فقـــدا الجنــــة فـــى إيجـــادنا ... ونعمـــنا منهــــما فـــى جنتيـــن

* فإذا ما جئنا إلى عاطفة الحزن نراها خافتة :

لاتخـــف بعـــدك حزن أوبكـــا ... جمـــدت منى ومنك اليـــوم عين

أنت قد علمتنى تـــرك الأســـى ... كل زيـــن منتـــهاه اليـــوم شين

وقد جاءت قصيدة الشاعر فليكس فارس والتى ألقاها بعد عودته من الاسكندرية ووقوفه على قبر والده بعد فترة من موته ، جاءت بهذه الصورة ، فيها من الفلسفة والحكمة مافيها ، وفيها من التصبر والتأسى وفيها الفخر وفيها مسحة من الحزن وقد بدأها بقوله :

أمستريـــــح أنـــت ياوالـــدى ... وراء هـــذا الـــحجر البـــارد ؟

هل حـــط عن روحك وقر البقـــا ... فـــأدرج الـــزائل فـــى الخـــالد

أم أنـــت منـــا حـــالم تجتـــلى أشبـاحنـا فـى هجعـــة الـراقد؟
أناظـــر أنـــت وقـــوفي إلـــى مشعـلك المنطفـــئ الـــخامد؟

* إلى أن يخلص إلى مدح والده مدحا لا يشعر بحاجته إليه بقدر ما يشعر بالفخر :

أبـــى لقـــد جــزت الثمانين فى أرجـاء هـــذا المشـــرق الهاجد
فكنت فى آفاقـــه شعلـــــة تهـــدى صـــراط الحق للجاحد
ســـدت اليراعين بنـــور الحجى فـــى مستهـــل الـــزمن الــراشد
فكنـــت مـــن (رستم) فى قدره وكنـــت مـن (مدحت) كالساعـد
حــــرّان كـل منهمـا لـم يكن يعـرف إلاّ الحـق مـــن سائـــد
مــا اختـرت بعـــدهما سيـــدا غيـــــر شبـــاة القلـم الشارد
يجـول فـــى القطـــرين ما فوقه إلاّ الضمـير الحى من قائـــــد

* إلى أن يثبت لنفسه هذا المدح أيضا بقوله :

كـــأننى أنـــت بعهـــد مضـــى مجـــددا فى الوطن الجـــــامد
أورثتنى فـى فطـرتى شعلــــــة تخـــذتها فـــى مسلكـــى رائدى

* وختم القصيدة بمسحة حزن يشوبها التفلسف فقال :

أجـــثو علـــى قـــبرك لا أشتكى مـرارة المستـوحش الفـــاقـــد
أسجـــد منضمـــا لنفســـى وهل يخلـــق دمـع الشـــوق بالساجد

الأسلوب :

تحتـاج هـذه العاطفـة المفعمـة بـالصدق إلـى أسـلوب يناسـبها ـــ،

فالأسلوب هو وعاء الفكرة أو كما يقول ابن خلدون : المنوال ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه [١] .

وتعد اللغة جميلة وبالغة حد الكمال بمقدار تعبيرها عن المعانى والعواطف [٢] .

ومع إيماننا بوجود أسلوب عام للأديب فهذا لا يعنى : أن الأديب له أسلوب واحد فى جميع فنون أدبه ، فالأديب له أسلوب عام ، ثم بحسب الغرض الذى يتناوله يزداد الأسلوب تخصصا مع الاحتفاظ ببعض الملامح العامة التى تشتهر فى أسلوبه وتتوزع فيما تناوله من أغراض [٣] . وقد أشار ابن خلدون إلىهذا التنوع فى الأسلوب بالنسبة للموضوع عندما قال : ((لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه)) [٤] .

وقد جاء أسلوب الخطاب على رأس الأساليب المستخدمة عند الشعراء فى رثاء الآباء ، ولا عجب فى ذلك فالإحساس بالفقد يجعل الشاعر يتناسى هذا الفقد ويرفضه ويتأبى عليه ويتحدث مع الأب كأنه موجود . ولذلك لا عجب أن يكون هذا الإصرار من أول بيت فى

(١) المقدمة : ابن خلدون ص ٥٧١ المكتبة التجارية .
(٢) النقد الأدبى : أحمد أمين ص ٥٩ .
(٣) فى ميزان النقد الأدبى . د طه أبو كريشة ، ص ٤٨ .
(٤) المقدمة ص ٥٧١ .

القصيدة ، يصر الشاعر علىذكر الأب ومخاطبته ومناداته من أول بيت ، كما قال أحمد العجمي :

أبـــي يا أبـي لبيك حيا وفــانيـــا ، فمازلـــت تدعوني وما زلت صاغيا

أبي ياأبي قد كنت تاجي وهامـــتي ، أبـــي ياأبـــي لو يقبـــل الموت فدية [1]

* ونجد ذلك أيضا عند الشاعر على عبد العظيم في قوله :

لروحــك يا أبــي أهــديــت بحـثا

فأنـــت أبـــي وأستاذي وشيخــــي

فمــــالي بعــدك اضطـــربت سفيني

عليــك درســـــت ياأبـــتي فنـــونا

وعنـــك ورثـــت إيمـانا قـــــويا

ومنـك عـلمت كيـف أصوغ فني

مآثـــرك الخــــوالد باقيـــــــــات

مصـابـي فيــك ياأبتي عظيـــــم

أبـــي طـال الخطاب ولـم تجبنـــي

أبـــي إنـــي لأسمـــع منـــك وحيا

أبـــي كنــت الــملاذ لكل شاك

جلالك ياأبـــي يسمــــو بنفســـي

أبــي نـــم في جوار اللّـه وانعم [2]

---

(١) الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .

(٢) مقدمة ديوان ابن زيدون ص ١.

ونلاحظ فى هذا النموذج السابق عليه والنماذج اللاحقة أن الشاعر يصـرّ على افتتاح قصيدته بالنداء على أبيه ((أبى ياأبى)) أو مخاطبته ((لروحك ياأبى)) وذلك للتأبى على الفجيعة ورفضها والإصرار على وجود أبيه ، كما قال أحمد العجمى :

أبى يا أبى لبيك حيا وفانيا		فما زلت تدعونى ومازلت صاغيا

* فالموت لم يغير من الأمر شيئا مازلت تدعونى ومازلت مصغيا لك وملبيا النداء وكذلك الشاعر الصيرفى يفتتح قصيدته بقوله :

طالت بخطوك الطريق يا أبى		طالت هنا بخطوك الطريق

أحس ما تحس من أسى		لما فقدت من مجاهل الطريق

حياتك التى مضت غاربة		لعالم محرر طليق

ودعتكم جميعكم ولم أزل		بحيرتى فى عالمى لصيق

أين الطريق يا أبى قد خفيت		وأين أنت الآن ياصديق [١]

* والشاعر فليكس فارس ، يبدأ قصيدته بمخاطبة والده :

أمستريح أنت يا والدى		وراء هذا الحجر البارد

أبى لقد جزت الثمانين فى		أرجاء هذا المشرق الهاجد

أيامك الأولى وقد دونت		أقرأها فى الليل كالهاجد

كأننى أنت بعهد مضى		مجددا فى الوطن الخامد

أجثو على قبرك لا أشتكى		مرارة المستوحش الفاقد [٢]

---

(١) ديوان صلواتى أنا ص ٦٠ .

(٢) مجلة أبولو مارس سنة ١٩٣٣ ص ٨٠٩.

* وينادى الأمير عبد اللّه الفيصل على والده بقوله :

فيصلي يامهندا ما أحب الغمد يوما ولا أرتوى من طماح

كيف أرثيك يا أبى بالقوافي وقوافي قاصرات الجناح (١)

* وها هو الشاعر أحمد شوقي يستهل مرثيته بقوله :

يا أبى ما أنت في ذا أول كل نفس للمنايا فرض عين

يا أبى والموت كأس مرة لا تذوق النفس منها مرتين

كيف كانت ساعة قضيتها كل شيء قبلها أو بعد هين؟

أشربت الموت فيها جرعة أم شربت الموت فيها جرعتين

لا تخف بعدك حزن أو بكا جمدت مني ومنك اليوم عين

أنت قد علمتني ترك الأسى كل زين منتهاه اليوم شين

* والشاعر أحمد محرم يخاطب والده بقوله :

نعاك لنا طبيبك إذ تولى يجيد به التأسف والحياء

فلما أن رمتك يد المنايا تفرى الثوب وانصدع الرداء

هدأت فما تطوف بك العوادى ولا ينتاب ساحتك الشقاء

بنيت لنا من الأخلاق صرحا دعائمه المروءة والوفاء (٢)

وكان بإمكان الشاعر أن يتحدث عن والده بضمير الغائب بعد فقده فيقول نعاه لنا ، فلما أن رمته يد المنايا ، ولكن التعبير بضمير الخطاب

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢١ ص ٩٥ .

(٢) ديوان أحمد محرم جـ ٣ ، ص ٢١٥ .

هنا جاء لإصرار الشاعر على رفض غياب الأب ، ومخاطبته كما لو كان موجودا .

* يقول أحمد عبد المجيد الغزالى :

راحل ، أيا ضلال هذا الوجود ... هو باق فى خاطرى ونشيدى
ياأبى شاهت الحياة بعينى ... والجديد البهيج غير جديد
ألق لى الحكمة الكبيرة واملأ ... مسمعى من يقينها المنشود
جل فيك العزاء يا والدى ... البر وآه من يومك المشهود [١]

والدكتور رجب البيومى لايكتفى بمخاطبة والده فقط ، ولكنه يتناسى فقده لدرجة أنه يطلب منه أن يستيقظ وأن يلبى نداء الفجر ، ويتعجب من عدم تلبية النداء :

أبى أذن الفجر فى الغيهب ... فكيف دعاك ولم تذهب
عهدتك تنهض قبل الأذان ... مشوقا إلى لحنه المطرب
أبى رمت وصفك مستجمعا ... بفكر كليل السنا متعب
أبى قد تلاشيت مثل الهباء ... فإن عفت ضعفى فلا تعتب [٢]

ومما يدخل فى أسلوب الخطاب رفضا من الشاعر لفكرة الموت ،ذاك الحوار الذى يصطنعه الشعراء مع الآباء كأنهم أحياء يسمعون ويجيبون .

---

(١) مجلة الرسالة السنة ١٤ العدد ٦٦١ ص ٢٥ .

(٢) حنين الليالى ص ١٦ .

وقد جاءت مرثية : الدكتور زكى مبارك على هذا النمط من أولها إلى آخرها :

أبى : أتذكر كيف كنت أطوى عنك همومى وأحزانى؟

أتذكر كيف كنت تسمينى الرجل الشجاع ؟

أبى لقد أردت أن أنهض بأحزانى كما ينهض الجمل بالحمل الثقيل.

أبى أرأيت كيف يكون لك الفضل فى الأخرة والأولى؟

أبى عزيز على واللّـه أن تقهرني الأمور على رثائك .

أبى : كيف أذكرك وكيف أتحدث عنك ؟

أبى : الآن أشعر بأنى فقدت كنزا من الكنوز الغالية .

أبى : أفى الحق أنى لن أراك ؟

أبى : أتذكر أيامك الأخيرة ؟

أبى : كنت أقول أوصانى أبى ونهانى أبى .

أبى : لقد أخرجنى موتك عن وقارى .

أبى : هل تعلم أنى ما تلفت إلاّ رأيتنى مغمورا بأياديك .

أبى : إنى لأعجب كيف يصح لمثلى أن يجزع بعد إذ رأى سخف الدنيا وهزالها منذ رآك .

أبى : أيسرك أن تعلم أن موتك أورثنى بعض النفع [١] .

ويأتى أسلوب الاستفهام بعد أسلوب الخطاب والحوار منتشراً فى قصيدة رثاء الآباء وهو استفهام لايقصد منه طلب الفهم ، بقدر ما يشعرنا بالحيرة والتخبط من ناحية ، والشك الناتج عن الجزع من ناحية أخرى ، وتجاهل العارف ومزج الشك باليقين ، أو هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ، ليزيد بذلك تأكيدا من ناحية ثالثة . ومن هذا قول زكى مبارك فى مرثيته : أبى : أفى الحق أنى لن أراك ؟ وأنى أصبحت من الأيتام الكهول ؟ إن الاستفهام هنا يشعرنا بهول الفقد عند الشاعر ورفضه للحقائق الثابتة والتشكيك فيها . وهو ما أسماه أبو هلال العسكرى : تجاهل العارف ومزج الشك باليقين [٢] .

وكلام أبى هلال هنا جزء من الحقيقة ، جزء من وظيفة الاستفهام عن الحقائق الثابتة ، أنه تجاهل العارف أومزج الشك باليقين ، ولكن الحقيقة تشمل أشياء أخرى ، وتشمل إظهار الكيان المتصدع المتشتت من هول غياب للأب ، وتشمل أشياء أخرى لاتفصح عنها العبارة تظل كامنة فى أعماق الاستفهام :

أبى : أفى الحقيقة أنى لن أراك ؟ لتشعرنا بمرارة الفقد ، ولعل هذه العبارة فيها خصوصية أخرى جاءت من التعبير بلن التى تفيد التأبيد

---

(١) البدائع جـ٢ ص ٥٧ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٨٧ .

أفى الحق أنى لن أراك إلى الأبد . وهذه الخصوصية هى التى أعطت عظم الفجيعة .

ونرى الاستفهام كذلك فى قوله : أبى كنت أقول : أوصانى أبى ، ونهانى أبى ، فالآن ماذا أقول ؟ إنه لايطلب إجابة ، ولكنه يطلعنا على الحقيقة المرّة ، لم يعد هناك أب يفتخر به ويتحدث عنه ، غاب الأب ولم يعد موجوداً ، ويأتى الاستفهام موجعا عند أحمد العجمى ليكشف لنا أنه لم يعد للشاعر من نصير بعد غياب والده :

أبى يأبى قد كانت تاجي وهامتي فمن لي؟ وقد غادرت في الترب تاجيا[1]

* هو قريب من ذاك الاستفهام الذى أورده على عبدالعظيم فى رثاء والده :

مصابى فيك يأبتى عظيم وهل فى الناس أفدح من مصابى؟

أى لم يصب الناس مثل ما أصابنى . ويأتى الاستفهام مرة أخرى مشككا فى قيمة الدموع . إنها لاتشفى غليل القلب ، ولا تطفىء لوعته:

وهل تشفى الدموع غليل قلب يذوب أسى مع الدمع المذاب؟

ويأتى الاستفهام هنا ، متجاهلا الحقيقة ، المؤلمة متناسيا أن أباه قد مات ، رافضا أن يكون ذلك قد وقع ، فهو لم يقع بالفعل . وعلى هذا الأساس يبنى الشاعر استفهامه مستفسرا عن سكوت والده مع أنه كان

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٥ ص ٢٧ .

يجيبه فى كل خطب :

وكنت تجيبنى فى كل خطب فمالك قد عييت عن الجواب؟

* وقد يأتى الاستفهام على حقيقته ، يطلب الشاعر من والده أن يجيبه ، وأن يفسر له هذه الرحلة الغيبية ومعناها ومغزاها :

أمستريح أنت يا والدى وراء هذا الحجر البارد ؟
هل حط عن روحك وقر البقا فأدرج الزائل فى الخالد
أم أنت منا حالم تجتلى أشباحنا فى هجعة الراقد ؟
أناظر أنت وقوفى إلى مشعلك المنطفىء الخامد ؟
أسامع صوتى وما نبرتى إلاَّ تمادى صوتك الهامد ؟

ولعل هذا من سمات قصيدة رثاء الآباء . لأن الأب وقد عاش هذه الرحلة الغيبية ، يستطيع أن يجيب عليها . أويتصور أن نسأله ونستفهم منه عن هذه الرحلة استفهاما حقيقيا . وقد يعترض على ذلك بأنه ميت لا يستطيع أن يجيب . ولكن الشاعر وهو يسأله عن هذه الاستفسارات يفترض أنه قادر على الإجابة ويسأله على الحقيقة . وقريب من هذا الاستفهام الذى يقصد منه معرفة الحقيقة تلك التساؤلات التى أدارها الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى :

ما انطلاق الأرواح ؟ ماهجعة الجسم ؟ وقد قر فوق هذا الصعيد
ماانطفاء الحياة حين تولى ؟ ماحياة الأرواح فوق اللحود ؟
مااللقاء الكبير فى الجدث الضيق ؟ ماالسربين تلك السدود ؟

مالرتياد المجهول من سبل الغيب ؟ أنمشي لغاية أم نودى ؟

❁ أسلوب الحكاية :

وينتشر أسلوب الحكاية ، عندما يصور الشاعر حال الوالد قبل وفاته مستخدما التعبير بالماضى أحيانا ليعمق إحساسنا بتلك الصورة التى مضت وانتهت . وأحياناً معبرا بالفعل المضارع متأبيا أن يكون هذا الذى يحكيه قد مضى وانتهى ، وإنما هو حاضر لا يغيب ولا ينتهى :

لقد كنت تسقينى وإن كنت صاديا	وكنت تواسينى وإن كنت شاكيا
وقد كنت ترعانى وتأسو مواجعى	فهيهات ألقى راعيا بعد آسيا
فكنت مثال الطهر والبر والهدى	كريما حليما طيب النفس راضيا

* وقول الشاعر :

أبى لقد جزت الثمانين فى	أرجاء هذا المشرق الهاجد
فكنت فى آفاقه شعلة	تهدى صراط الحق للجاحد

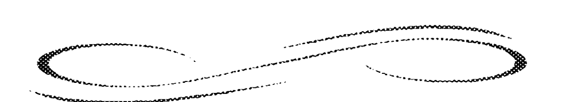
* ويصور أحمد شوقى ذلك فيقول :

طالما قمنا إلى مائدة	كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من إناء واحد	وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدى فى يده	من رآنا قال عنا أخوين

* ويتأبى الشاعر فى أسلوب الحكاية على الماضى والتعبير به ،

معبرا بالمضارع ليشعرنا أنه كان ولا يزال ، وأن الموت لم يغير شيئا فيقول :

وتعطى الزكـــاة وما فوقهـــا	فتوســـع مـن بـــرّك الأرحـــب
وتمضى إلى الدرس بعد الغـــروب	وكم لك فى الدرس من مشـــرب
تزيـــل الغوامـــــض إذ تجتبـــى	مــــن السلسل العذب ما تجتـــبى
وتشــــرح آى الكتاب الكريــــم	مفصلـــة بحــديث النبــــــــى
وتعمــد للسهــل حتى كأنـــــــ	ـــك ترشـف من منهـل أعـذب




الخاتمة

الخـــــاتمة

بعد تناول النماذج التى ساقها الشعراء فى رثاء الآباء ،يتضح للقارىء أن قصيدة رثاء الآباء تتناول الوالد فى حياته ، مشيرة إلى أثر الوالد فى حياة ولده ، مادحة إياه من ناحية ، ذاكرة صفاته ، وكيف كان سندا للابن ومعلماً له ومرشداً .

بل إن الأبناء كانوا يعتمدون على الآباء ، حتى وهم فى مرحلة كبيرة من العمر . لدرجة أن الشاعر قد صور إحساسه باليتم حتى مع كبره ودخوله فى زمرة الشيب .

وربما تحدثت القصيدة عن مرحلة المرض والموت ، وكيف أنها كانت قاسية على الأبناء رغم تحمل الآباء ، وربما أشارت القصيدة إلى تلك المرحلة التى يمتد فيها العمر بالآباء ، ويودعون الأصدقاء ، ويحسون بالوحدة ، كل هذه المعانى قد صورتها قصيدة رثاء الآباء .

وتتحدث القصيدة عن أثر هذا الفقد فى حياة الأبناء ، من حزن ودمع ، ويختمون القصيدة بالدعاء للآباء .

وجاءت بعض القصائد على خلاف ذلك . جاءت وهى تحمل من الفلسفة والحكمة ، أكثر مما تحمل من الحزن والفقد .

وردّت الدراسة ذلك إلى البعد الزمنى بين وقوع الحدث وإنشاء القصيدة .

تناولت الدراسة قصيدة رثاء الآباء من الوجهة الفنية ، فتناولت مقدمة قصيدة رثاء الآباء ، ومطلعها وخاتمتها ، وقضية ارتباط البحر بالموضوع والأخيلة والعاطفة والأسلوب ، ووقفت الدراسة عند قضية العاطفة ، وعجز الشاعر عن الإنشاد وقت الفاجعة .

وتناولت الشاعر أحمد شوقى عندما صور ذلك بقوله :

سألونى لم لم أرث أبى ورثاء الأب دين أى دين

أيها اللوام ما أظلمكم أين لى العقل الذى يسعد أين!

وأشارت الدراسة إلى أن الشاعر وقت الحدث ، قد لايستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، وأن يلجم من هول المصيبة .

ولكنه بعد فترة يستطيع أن يجمع شتات نفسه ، وأن يصهر انفعالاته وعواطفه فى بوتقة الشعر أوالنثر . ومع ذلك أشارت الدراسة إلى أن هذه الفترة لو طالت ، أدت إلى ضعف العاطفة ، عاطفة الحزن والتأثر ، وخرجت القصيدة من إطار الحزن الخاص ، إلى الأحداث العامة مفلسفة لهذا الحدث . وضربنا مثالا لذلك بقصيدة شوقى وفليكس فارس .

ومن خلال هذه الدراسة تبين لنا ما يلى :

– خلت بعض دواوين فحول الشعراء من رثاء الآباء .

– جاء هذا اللون باهتاً عند الشعراء القدامى كامرىء القيس وغيره .

– حملت قصيدة رثاء الآباء عاطفة قوية فيها حزن على الآباء وفيها تفجع وتألم من المصاب وربما جاءت رنّة الفخر أو التأسى أو العزاء .

– استخدام الشعراء فى رثاء الآباء أسلوب الخطاب والحوار ، تأبيا على فكرة غياب الأب ورفضاً لها وتأكيداً على وجوده .

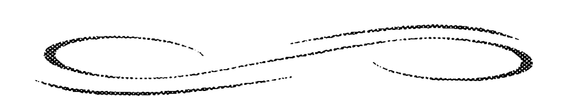
– إذا كان ابن رشيق قد أشار إلى أن من أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليهما وقلة الصفات .

فقد جاءت قصيدة رثاء الآباء وفيها متنفس ومتسع لوصف الأب فى حياته ومدحه بعظيم صفاته .

– جاء الاستفهام فى قصيدة رثاء الآباء على حقيقته فى بعض الأحيان ، فالشاعر يريد أن يعرف من والده سر تلك الرحلة الغيبية ،

وما دار فيها .

- رصدت الدراسة إحساس الشعراء بالفقد واليتم ، رغم كبر سنهم ، فقد ارتدّوا وقت المصيبة إلى عالم الطفولة من شدة الجزع .



ساقط من اصل المصور


المراجع

المـــــراجع

١) الأسس النفسية للإبداع الفنى — د. مصطفى سويف
– دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة .

٢) الأغانى — للأصفهانى
– دار العودة بيروت

٣) البدائع — زكى مبارك

٤) البيان والتبيين — الجاحظ

٥) تاريخ النقد الأدبى — الاستاذ / طه أحمد إبراهيم
– دار الحكمة بيروت لبنان .

٦) خمسة من شعراء الوطنية
– الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٧) ديوان الحماسة . — أبو تمام
– تحقيق د / عبد المنعم أحمد صالح .سلسلة خزانة التراث . العراق

٨) الرثاء — د. شوقى ضيف
– دار المعارف الطبعة الرابعة .

٩) رثاء الأبناء فى الشعر العربى — د. مخيمر صالح موسى
– مكتبة المنار الطبعة الأولى .

١٠) الرثاء فى الشعر العربى د/ محمود حسن أبو ناجى
– منشورات دار مكتبة الحياة سنة ١٤٠١هـ

١١) زكى مبارك شاعراً د/ العربى حسن درويش
– الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م .

١٢) شرح ديوان الحماسة

١٣) الشريف الرضى حياته وشعره د.حسن جعفر نور الدين
– دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢م .

١٤) كتاب الصناعتين أبو هلال العسكرى
– مطبوعات محمد على صبيح / الطبعة الثانية .

١٥) العمدة ابن رشيق
– دار الجيل الطبعة الرابعة .

١٦) عيار الشعر ابن طباطبا
– دار الكتب العلمية / بيروت ، ١٩٨٢م

١٧) فصول فى الشعر ونقده د/ شوقى ضيف
– دار المعارف / الطبعة الثالثة .

١٨) فى ميزان النقد الأدبى د / طه مصطفى أبو كريشة
– القاهرة ١٩٧٦م

١٩) الكامل المبرد

٢٠) مشاهير شعراء العصر أحمد عبيـــد

٢١) مقدمة ابن خلدون ابن خلدون

٢٢) موسيقى الشعر د.إبراهيم أنيس
– الطبعة الخامسة .

٢٣) النقد الأدبى . أحمد أمين
– مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة .

٢٤) ديوان أحمد شوقى أحمد شوقى
– دار نهضة مصر سنة ١٩٨٠ م .

٢٥) ديون أحمد محرم أحمد محرم
– مطبعة الفتوح الجديدة ١٩٢٠ م .

٢٦) ديوان أشعار الأمير أبى العباس دراســــــة وتحقيق د/ محمد بديع شريف – دار المعارف ، ذخائر لعرب

٢٧) ديوان امرئ القيس امرؤ القيس
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف ، ذخائر العرب.

٢٨) ديوان حافظ إبراهيم حافظ إبراهيم
– الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م .

٢٩) ديوان حنين الليالى د/ محمد رجب البيومى
– مطبعة السعادة ١٩٨٧ الطبعة الأولى .

٣٠) ديوان ابن زيدون ابن زيدون ، شرح على عبد العظيـــم

٣١) ديوان الشريف الرضى

٣٢) ديوان صلواتى أنا حسن كامل الصيوفى
- طبع دار المعارف سنة ١٩٨٢م .

= **دوريات** :

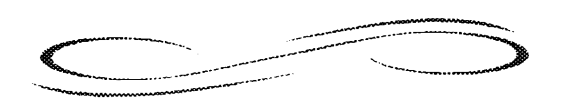
٣٣) مجلة أبولو.

٣٤) البلاغ .

٣٥) الرسالة .

٣٥) الثقافة .

٣٦) الفيصل .




الفهارس

الفهـــارس

المقدمة

تمهـــــيد (رصد تاريخى لظاهرة رثاء الآباء)

من ص ١٣ : ص ٢٦

الفصــــل الأول

(دراسة موضوعية من ص ٢٧ : ٦٠)

– مدح الآباء ٢٩

أثر الآباء فى الآبناء ٣٥

* المرض والشيخوخة والموت ٣٨

* أثر الموت على الأبناء ٤١

* الدعاء للأب ٤٥

* الوقوف على القبر ٤٨

* التأسى والعزاء ٥١

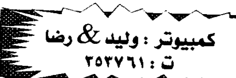
* تمنى العزاء ٥٣

* صور فردية ٥٤

الفصل الثانى

(دراسة فنية من ص : ٦١ : ص ١٠٦)

* مقدمة القصيدة ٦١
* مطلع القصيدة ٦٥
* خاتمة القصيدة ٧٢
* الأوزان ٧٦
* الخيال ٨٢
* صفات المرثى ٨٢
* تصوير المرض والموت ٨٤
* أثر فقد الإباء ٨٦
* العاطفة ٨٧
* الأسلوب ٩٥
* الخاتمة ١٠٩
* المراجع ١١٥



رقم الإيداع بدار الكتـــــب

١٣٤٦٠ / ٩٦

الترقيـــــم الدولـــــى

977 - 19 - 2202 - 5

